كتاب اليوم
يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

محمود عوض

تليجرام : هنا مصر الأزهرية
أكبر مكتبة رقمية

أم كلثوم
التي لا يعرفها أحد

كتاب اليوم
يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

رئيس مجلس الإدارة
محمود أمين العالم

تليجرام مكتبة غواص في بحر الكتب

مدير التحرير
مصطفى حلبية

سكرتير التحرير
جلال عارف

الغلاف بريشة الفنان
مصطفى حسين

إهـــــداء ٢٠٠٧
الأستاذ / عبد الغنى أبو العينين
جمهورية مصر العربية

محمود عوض

sp.col.
782.421
68092
U52a
1966

تليجرام مكتبة غواص في بحر الكتب

أم كلثوم

التي لا يعرفها أحد

٥/١٦٤٨٤/١

تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية

مقـــدمة ..

تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية

صديق لا أعرفه

.. كم الساعة الآن ؟ ..

سؤال يقفز الى ذهني اوتوميكيا كلما فكرت في ام كلثوم عندما استمع اليها تغني ، تتكلم ، تناقش ، بل ـ حتى ـ وهي تستمع .. اكتشف ان الوقت قد خدعني . عندما امد يدي الى شريط من اغاني أم كلثوم .. اي شريط .. فانني ادير له لكي استمع منه الى خمس دقائق ، عشر دقائق ، ربع ساعة ، ولكنني اكتشف فجاة ان الوقت قد جرى مني دون ان ادري . اكتشفت سؤالا يقفز الى ذهني فجاة : كم الساعة الآن ؟ .. السابعة السابعة ، الثامنة التاسعة ، العاشرة مساء . اربع ساعات قضيتها وانا استمع .. الى اغنية لم اسمعها منذ مدة طويلة ـ منذ اربع ساعات ـ تصور وبينما استمع الى أم كلثوم فربما ـ ربما ـ انتبه الى الوقت من جديد قرب منتصف الليل . آيه ؟ كم الساعة ؟ منتصف الليل ؟ لا .. لا .. هذا كثير ! ..

ولكن لا يوجد كثير عندما تستمع الى ام كلثوم ، لم يعد هناك كثير من التصفيق .. كثير من الانفعال .. كثير من الوقت .. تحول الكثير الى شيء عادي . روتين . عادة . بل انني اصرف صديقا يحدث له اكثر من هذا عندما يستمع الى ام كلثوم ، اذا اعطيت لصديقي هذا كرسيا وطلبت منه ان يجلس عليه .. فانه سوف يجلس .. ساعة ، يوما ، اسبوعا ، لو لزم الامر . صديقي لن يطلب منك شيئا اكثر من الطعام و .. اسطوانات أم كلثوم ! ..

انني لا اعرف صديقي هذا . اعرف فقط ان اسمه هو (م) . هذا اسمه ـ ميم ـ .. نقطة . لانني لا استطيع كتابة اسماء مليون شخص ، مائة مليون شخص ، يفعلون ما يفعله صديقي هذا عندما يستمعون الى أم كلثوم ..

هؤلاء .. هم جمهور أم كلثوم ..

ومنذ وقت طويل مضى ، اعتادت ام كلثوم على هذا الحب من جمهورها ، انها تستمع منهم الى التصفيق . ثم ماذا بعد ذلك ؟ التقدير . ثم ماذا ؟ الشهرة ، الاعجاب ، الحب ـ نعم ـ ثم ماذا اخيرا ؟ التصفيق من جديد .. هذا كل شيء ..

ومعنى ذلك اننا لم نعـــرف اكثر من ١٥ ٪ من ام كلثوم ، لم نشاهدها سوى كل ليلة خميس تغنى فيها ، هذا كل ما نعرفه . اما حياة ام كلثوم ـ شخصية ام كلثوم ـ ابتداء من الجمعة الى الاربعاء ، من الصباح الى المساء ، من الفجر الى العشـاء .. فلم نعرف عنها الكثير بعد . مازالت شخصية ام كلثوم تحتـــاج الى اكتشاف .. الى تحليل . الى اعادة نظر ..

اكتشاف آخر : ان ام كلثوم هى السبب فى هذا كله ! ..
لقد اقامت ام كلثوم سورا صينيا حول شخصيتها ، سورا عاليا .. سـورا يحجب ماتى داخله ، خلف هـذا السور تحتفظ ام كلثوم بحياتها الخاصة ، بشخصيتها الخاصة ، بافكارها الخاصة . ان ام كلثوم قد اتخـــذت قرارا اختياريا سابقا : ان تعيش حياتها بين قوسين ..

وشيئا فشيئا بدات احاول اقناع ام كلثوم ان تفتح القوسين ، ان تفتح باب السور حتى يعرف الناس كل حياتها ، كل شخصيتها كل تفكيرها ، شهر وشهر .. وسنة .. ثم بدات ام كلثوم تتكلم ، بدات تتكلم ـ بعد سنة ـ لكى تروى لى اشياء كثيرة جدا .. اشياء أستطيع تلخيصها تحت عنوان واحد : لا شيء ! .. ولا حرف ، ولا كلمة ، ولا ـ حتى ـ وعد بكلمة ..

ولكننى حاولت من جـــديد .. مرة .. ومرة .. ومرة . ثم ـ اخيرا ـ بدات ام كلثوم تتكلم . تتكلم فعلا ..

في هذه المرة كان حديثي مع ام كلثوم يبدأ على اساس انه سيستغرق نصف ساعة - بالكثير ساعة - ولكن .. ها هو السؤال من جديد يقفز الى ذهني تلقائيا : كم الساعة الآن ؟ لحظتها اكتشفت ان الساعة قد توقفت منذ ساعة ، ساعتين ، ثلاث ، اربع - احيانا خمس - ساعات ! ..

وفي كل مرة كنت اعود الى الاوراق التي كتبتها من حياة ام كلثوم . اعادة نظر . ماذا في يدي ؟ اوراق - نعم - ولكن .. ياه كل هذه الصفحات .. ؟ كل هذه الاسرار عن شخصية ام كلثوم ؟ ..

ان ام كلثوم بدأت حياتها من لا شيء . اقل من لاشيء .. من الصفر .. من تحت الصفر .. ولكنها استطاعت ان تصل الى قمة لم تصل اليها احد ، ثم استمرت في وقت لا يستمر فيه احد .. وفيما بين النقطتين - القاع والقمة - واجهت ام كلثوم مواقف كثيرة الفقر ، الجوع ، الحرمان ، الشقاء ، اليأس ، الهزيمة ، السقوط ، الفشل ، الالم ، العذاب - كثيرا من العذاب ، ثم - بعد وقت طويل - النجاح ، مواقف لا يعرفها أحد ..

فيما بين القاع والقمة كان فن ام كلثوم هو - في الواقع - الطريقة التي عاشت بها ، حياتها نفسها .. هي الفن .. فن ام كلثوم هو حياتها ، وحياتها هي شخصيتها ، وشخصيتها هي - من جديد - المفتاح الرئيسي - لفهم أم كلثوم . ان أم كلثوم هنا هي نموذج ، هي رمز ، رمز لشخصية ، لحياة ، لمجتمع ، لظروف هذا المجتمع .

و .. ..

الصفحات القادمة هي حصيلة هذا كله .. حصيلة افكار

ام كلثوم .. وافكار المجتمع عن ام كلثوم . نصفها مذكرات منها ، ونصفها مذكرات عنها . حل وسط ..

فى هذه النقطه اريد ان انبه الى شىء هام : اننى اعشق صوت ام كلثوم ، ولكننى لا اعبده . فى الواقع اننى انتمى الى جيل جديد لا « يعبد » احدا . جيل يحب ، يعجب ، يعشق .. ولكنه لا يقبل ـ حتى هذا ـ الا بعد أن يفهم .. ويناقش . جيل يرفض استثناء احد من المناقشة .. والمراجعة .

وام كلثوم نفسها متفقة معى فى هذه النقطة . بل انه فى مكانين على الاقل من هذا الكتاب حدث خلاف فى الرأى بين ام كلثوم وبينى . مازال الخلاف قائما .

ولكننى اومن باننى اذا كنت معجبا حقا باحد .. فيجب ان اعبر عن هذا الاعجاب وانا واقف على قدمى ..

ان ام كلثوم نجحت فى اشياء كثيرة . . سوف تسجل الصفحات القادمة جزءا منها . .

وفشلت ام كلثوم فى اشياء قليلة ، سوف تسجل الصفحات القادمة معظمها ..

ولكن .. يبقى فى النهاية شىء واحد . لقد فشلت ام كلثوم فى شىء اكبر من هذا كله : فشلت فى ان تكون امراة عادية ! ..

بهذا السطر اعلن انسحابى مؤقتا .. حتى اجلس فى مقاعد القارىء لصفحات .. من مذكرات ام كلثوم . مذكرات منها وعنها مذكرات الى صديقى المجهول « م » .. ميم . . نقطة . مليون مستمع ـ مائة مليون مستمع ـ يعشقون ام كلثوم ! ..

محمود عوض

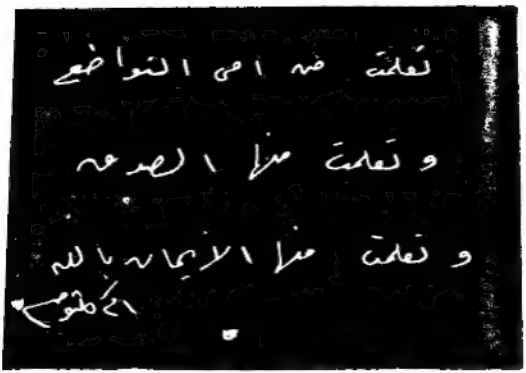

صفحه من مذكرات أم كلثوم بخط يدها

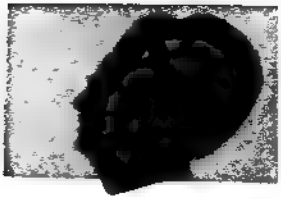

و .. كانت اول حفلة غنيت فيها مزدحمة جدا بالناس . لقـــد حضرها خمسة عشر شخصا ..!!

ام كلثوم

من مذكرات أم كلثوم

سنوات السير على الأقدام!

كانت فاطمة تقيم في بيت ريفي صغير من الطوب النيء . البيت له عدة ابواب تطل على حوش ، وراء كل باب حجره صغيرة طولها ثلاثة امتار وعرضها متران تقيم فيها اسرة مكونة من زوج وزوجه - عدة اطفال ..

وفي احدى هذه الحجرات وقفت فاطمة المنجي تتلوى من الالم في انتظار المولود ..

ومع الفجر ، اطلت المولودة براسها ، وحملت الداية القروية المولودة وخرجت بها الى المدرة وهي تصرخ : مبروك فاطمة ولدتها ولم تقل الداية ان فاطمه انجبت طفلة .. فقد خشيت أن يصطدم الاب بالخبر ! ..

وكان الاب يجلس على الارض يقرا كتابا عن اولاد النبي .. وكانت عيناه في تلك اللحظة على اسم احدى بنات النبي ، وقبل ان يسمع أنه ورق بمولود او مولوده صاح : نسميها ياسم بنت النبي ، نسميها أم كلثوم ! ..

ولم يكن اسم « أم كلثوم » معروفا ولا متداولا في قرية (طماي) ولا القرى المجاورة ، ولهذا بدا اسما غريبا على اسماعهم .

ولم تعترض فاطمة في اختيار هذا الاسم ، ولكن الاهل والاقارب اعترضوا على الاسم الغريب ، وراحوا يحاولون اقناع الشيخ ابراهيم باختيار اسم جميل مثل خضره وبدوية وست الدار !.

ورفض الشيخ هذه الاسماء ، لقد اصر على ان يسمي المولودة باسم بنت النبي " أم كلثوم !..

ويظهر أن امي كانت تشارك اهل القرية سرا في اعتراضهم على اسم « أم كلثوم » .. لانني وعيت عليها وهي تناديني باسم « سومة » ، وكان والدي ايامها امام مسجد في قرية « طماي الزهايرة » من اعمال مركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية ، وكان

مرتبه من الامامة لا يكفي للصرف على اسرته ، ولهـذا كان يقرأ القرآن في الموالد ، ان مجموع دخله من عمله الاصلي وعمله الاضافي لم يكن يتجاوز عشرين قرشا ..

وكان هذا المبلغ هو الذي يعطي كل شهر نفقات اسرة مكونة من امي وابي واخي خالد .. وانا ! ..

ولا اعرف كيف كنا نعيش بهذا المبلغ البسيط .. لان صورة معيشتنا المتواضعة لا تعيش في ذاكرتي . لان اول صورة اذكرها اليوم هي صورة « ستي نصرة » ام ابي . كانت نحيفة سمراء ، مسمسمة التقاطيع ، اتني مازلت اذكرها وقد ارتدت جلبابا سوده وطرحة سوداء وجلست على الارض تفصل لي عروسة من القماش وانا جالسة مسحورة ! اذكر انها لما انتهت من تفصيل العروسة وملأتها بالقطن ، رسمت عليها العينين والحاجبين والشعنين ، ثم قطعت خصلة من شعرها ، ولصقتها على راس العروسة ، وانا ارقب عمليه الحلق في دهشة واعجاب ! ..

ولاحظت ان اخي كان يحمل كتبا وكراسات كل صباح ويذهب الى الكتاب المواجه لبيتنا . فذهبت ابكي لامي واطالبها بادخالي الكتاب ! ..

وقالت امي انت صغيرة السن ! ..

ولكني رحت اذرف الدموع والح على ابي ان يدخلني الكتاب !

وتعب ابي من الحاحي فادخلني « كتاب » سيدنا الشيخ عبد العزيز ! ..

وكنت اذهب كل صباح الى الكتاب واجلس في الفصل دون ان اتعلم شيئا ! ..

وكنت سعيدة بدخولي الكتاب . فقد اصبحت لي كل مظاهر اخي الكبير ، ولم انتبه الى انه كان يتعلم .. بينما كنت انا اتفرج ! وبعد بضعة اشهر سمعت ابي يهمس لامي عقب صلاة الفجر مرة ! انا ما اقدرش ادفع مصاريف أم كلثوم .. ما عنديش غير قرش واحد ادفعه للولد ..

وراحت امي تلح على ابي وترجوه ان يبحث عن اي طريقة يدبر بها قرشا آخر حتى لا ينكسر قلبي ، لقد كانت مصاريف الكتاب قرشا واحدا ، ادفعه كل اسبوع لسيدنا فقي الكتاب ،

واستطاع ابي ان يدبر هذا القرش ، ولم اخرج من الكتاب .

وتحولت مع الايام من متفرجة الى تلميذة بعد ان رأيت زملائي في الفصل يكتبون ويقرأون . وبدأت اتتبع دروس الشيخ عبد العزيز ، بعد ان كنت اتتبع حركاته ونظراته !..

وفجأة .. طارت سعادتي ! وكرهت المعلم والشيخ عبد العزيز فقد حدث ان اساءت لي زميلتي وجارتي على « التختة » التلميذة عزيزة .. فقررت ان انتقم منها .

وذهبت قبل موعد بدء دخول التلاميذ الى الكتاب ، وفتحت درج عزيزة وكسرت لوح الاردواز الذي تكتب عليه .

وفجأة دخل معتش وزاره المعارف ' فقررت من مقعدي وضربت له السلام !

وسأل المعتش عن الشيخ عبد العزيز ، فقلت له انه لم يحضر بعد ..

وحضر الشيخ عبد العزيز بعد فترة من انتظار المعتش الذي كان يتميز غيظا من تأخر الشيخ ! ..

ولما جاء الشيخ قال له المعتش . ما شاء الله ! البنت الصغيرة تحضر في الميعاد .. وحضرتك تتأخر نصف ساعة !

وصاح الشيخ عبد العزيز بهذا اللوم ، وحملني مسئوليته ، وراح يصطهدني ، في كل مناسبة كان يسأل السؤال ثم يتجه نحوي دائما ويقول ساخرا ' قومي جاوبي يا بنت يا فالحة ..

وكان زملائي وزميلاتي يفرقون في الضحك كلما سمعوا كلمة « فالحة » ! ..

وصاقت الدنيا في وجهي ! واصبحت اكره الذهاب الى الكتاب حتى لا اقع في قبضة الشيخ عبد العزيز . اسئلته ! .

وفي يوم من الايام فتحت لي السماء ابوابها ..

لقد مات الشيخ عبد العزيز فقيه الكتاب !

ولم اصدق النبأ .. تصورت انني احلم ! ذهبت الى الكتاب فقالوا لي ان سيدنا قد مات فلم اصدق ، ذهبت الى بيته ، رأيت دموع زوجته وأمه وابنته فلم اصدق ! .. ولما سارت جنازته وراء نعشه حتى المدافن ، انتظرت حتى اخرجوه من النعش وادخلوه المقبرة وواروه التراب ! ..

لقد كنت اتصور أن الشيخ عبد العزيز من الشخصيات التي

لا يمكن ان نموت ! كنت اتصور انه سيطل براسه فجاه من القبر ويقول لى

قومى جاوبى يابنت « يا فالحه » :..

ولكن سيدنا الشيخ لم يطل براسه من تحت التراب !

وتوهمت انهم دفنوا التعليم فى القبر مع الشيخ عبد العزيز ! تصورت ان عصر الذهاب الى الكتاب قد انتهى ولن يعود،تصورت انه مخترع فكره التعليم ..

ولكن سعادتى طارت منى مره اخرى

لقد فوجئت بان سيدنا الشيخ عبد العزيز لم يكن الفقيه الوحيد فى الدنيا ! فوجئت بان التعليم لم يدفن معه فى القبر كما تصورت !

فوجئت بانه لا يزال هناك « اسياد » على قيد الحياة يعلمون فى الكتاتيب ! ..

لقد اغلق كتاب سيدنا الشيخ عبد العزيز ابوابه ، وبقيت كتاتيب اخرى مفتوحة الابواب ! ..

وصدر والدى امره الذى لا يقبل مناقشه بان انتقل مع اخى خالد الى كتاب آخر يبعد عن بلدتنا حوالى ثلاثة كيلومترات.. انه كتاب عزبه « الحوال » بالسنبلاوين ! ..

وكنا نمشى كل صباح ثلاثة كيلو مترات الى الكتاب ، ثم نمشى ثلاثه كيلو مترات اخرى الى قريتنا ! اى اننى كنت اقطع كل يوم سته كيلو مترات مشيا على الاقدام ! ولكنى فى الواقع كنت اقطع عاده سبعة او ثمانية كيلو مترات بسبب حبى للمغالطة !

فقد انضم لنا صابر ابن زوج اختى ، وعمرو وهو من قرية مجاوره ، وكنا نحن الاربعة نلعب لعبة كرسى السلطان اثناء عودتنا من الكتاب . كان كل ثلاثة منا يحملون الرابع من عمود تليفون .. الى عمود تليفون !

وكنا نختلف عشرات المرات ! كان كل منا يدعى ان هذا دوره فى الجلوس على كرسى السلطان !.. وكنت اكثرهم مغالطة .. وصرارا على انى صاحبة الدور ! ولذلك كنا نرجع عشرات المرات الى اعمدة التليفون التى مررنا بها ، لنبدا الرحلة من جديد ، ونرضى الطفل الذى ادعى دوره فى الجلوس على كرسى السلطان !

وبدات احب الكتاب من جديد ، لاننى كنت احب لعبة كرسى السلطان ! ..

وبدأت مقاومتي للتعليم تتكسر ، خصوصا ان فقيه الكتاب الشيخ ابراهيم واولاده لم يضطهدني كما كان يفعل سيدنا الشيخ عبد العزيز ! لم يقل لي « الأسياد » الجدد قومي يا بنت يا فالحة لم يسخر مني سيدنا الشيخ ! لم يركز اسئلته في الفصل على ام كلثوم ، الا اذا رفعت اصبعها وابدت استعدادها للاجابة ! .

وبدأت احب اساتذتي .. وحبي لهم جعلني احب التعليم ، واحب الذهاب الى الكتاب ! ..

وكانت حياة طفولتي سعيدة مليئة بالضحكات ـ مع الفقر ـ الى ان صحوت في فجر احد الايام على صوت همسات بين امي وابي ! ..

سمعت امي تسأل ابي عن سر قلقه طوال الليل ، وسمعت ابي يقول لها : العيـــد جاي ! .. ومش قادر اجيب للاولاد جلاليب جديدة في العيد ! ..

واحسست بالام امي وابي ! ..

وعندما طلع النهار ذهبت الى امي وقلت لهـا : انا مش عاوزة جلابية على العيد .. جلابيتي القديمة حلوه قوي ونفسي البسها في العيد ! ..

وبكت امي .. وراحت تمطرني بعلاتها .. وشعرت وانا محاطة بذراعيها ، انني لرتدي اجمل فستان في الدنيا ! ..

ومن الصور التي نعيش في ذاكرتي صورة ابي وهو جالس على الارض يعلم اخي قصة مولد النبي والقصائد والتواشيح ليساعده في عمله الاضافي الذي يقوم به .

واذكر انني لم اكن اهتم بالجهود التي يبذلها ابي لتعليم اخي وتحفيظه هذه القصائد ، كنت في شغل عنها باللعب مع اجمل فتاة في الدنيا : عروسة جدتي ! ..

ولكن يظهر ان التكرار بدأ يتحكم في ذاكرتي ، لانني بدأت وعمري خمس سنوات احفظ ابي من وراء ظهره .. احفظه وهو يعلم اخي حالا ! ..

وفي احد الايام ضبطني ابي ! ووقف وراء الباب يرقبني وانا احفظه ! فلما انتهيت من تقليده قال لي : تعالى معايا الى حفـــلة شيخ البلد ! ..

قلت له : لا .. موش عاوزة اروح ! ..

فراح ابى يغريني بالكراملة التى احبها ، فعاندت ورفضت !.

ولكن لما بدا يلوح لى بصحن المهلبية الذى اعشقه ذاب عنادى ووافقته على ان اذهب معه الى الحفلة !..

وكانت الحفلة مزدحمة بالناس .. فقدبلغ عدد الذين حضروها حوالى خمسة عشر شخصا .. وكان هذا العدد بالنسبة لى هو الزحام الضخم ! ..

وطلب منى ابى ان اجلس بجانبه على الكنبة الخشبية واغنى كما هى عادته المعتادة فى ذلك الوقت ! ولكنى رفضت الجلوس ، واصررت على الوقوف فوق الكنبة .. وبدأت اغنى ! ..

ولم يساورنى الخوف ! لم اضطرب امام الجماهير ! لقد وقفت وغنيت بلا اهتمام وكانى اغنى لعروستى الصغيرة ! ..

انى اخاف اليوم من الجمهور الذى يعرفنى واعرفه .. واحسب له الف حساب وانا اواجهه .. لكن لما كان عمرى خمس سنوات كنت اكثر ثقة بنفسى من اليوم ! ويظهر ان الخبرة هى التى تعلمنا الخوف !..

وبعد خمس دقائق انهيت من غنائى ، وسمعت لاول مرة فى حياتى تصفيق الناس ! ولكن هذا التصفيق لم يهمنى ! فقد التفت الى ابى وقلت له فى لهفة : فين بقى اللى قلت لى عليه ؟ فين «طبق المهلبية » ؟ ! ..

وكان بين الذين حضروا هذه الحفلة بعض اهالى مركز السنبلاوين الذين طلبوا من ابى احضارى معه الى حفلتهم المقبلة.

وذهبنا الى السنبلاوين مشيا على الاقدام .. مشينا ثلاثة كيلو مترات . وتناوب افراد الفرقة حملى على اكتافهم كلما شكوت من التعب !

وقادنا صاحب الحفلة الى منزله الصغير .

لم ادخل المنزل وحدى ! ..

كنت احتضن قطتى الصغيرة التى كانت تؤنسنى ، وتبدد وحدتى كانت هذه القطة صديقتى ! كنت احدثها عن مشاعرى الصغيرة واحلامى الكبيرة .. وكانت تنصت الى باهتمام !..

الشيخ ابراهيم .. والد ام كلثوم

وفجأة تركتني القطة ودخلت تحت كنبه من الخشب ! فزحفت وراءها وجلست معها تحت الكنبة ! ويظهر انى جلست تحت الكنبة مدة طويلة .. فقد راح والدى يبحث عنى دون جدوى !

ولما خرجت القطة من تحت الكنبة ، خرجت وراءها ! وتلقفنى والدى واجلسنى بجانبه وطلب منى ان اغنى ! ورفضت للمرة الثانية أن أغنى جالسة .. اصررت على الوقوف ! ..

وكان جمهور هذه الليلة أكبر من جمهور الليلة السابقة .. كان عددهم عشرين شخصا ! ولكنى لم اشعر بهذا الجمهور الكبير ولم أهتم به ! كنت اغنى وانا احلم .. كنت احلم بطبق الهليبة الذى ينتظرنى ! ..

وتوالت الحفلات ..

ولم اسمع من ابى وامى فى يوم من الايام شكوى بصوت مسموع من الفقر والحرمان الذى نعيش فيه ، كانا يحاولان دائما اخفاء الضيق عنا .. وكانا لا يكشفان عن هذا الضيق الا بهمسات بعد صلاة الفجر ، عندما يتصوران اننى واخى نائمان لا نسمع شيئا !

ولكن هذه الهمسات الحزينة عاشت معى ! كانت تدوى فى اذنى كنت اتصور ان ازمة امى وابى فوق قدرتى ! كنت اتصور ان كل ما استطيع ان اقدمه لامى ، هو ان اتطلع الى السماء واقول : يارب ساعد امى ! ..

ولم يخطر ببالى اننى سأستطيع فى يوم من الايام ان اكسب قرشا اساهم به فى تخفيف ازمات امى ! ..

ولكن فى ذات ليلة وجدت فى يدى كنزا ! ..

❁❁❁

لقد اعطانى صاحب الحفلة الذى غنيت عنده قطعة فضية من ذات العشرة القروش ! وأطبقت اصابعى الصغيرة على القروش العشرة فى حرص ، وكأننى امسك الدنيا كلها بيدى ! ..

عشرة قروش !..

لقد بدت لى فى تلك اللحظة انها اكثر من مال قارون ! وتصورت ان العشرة القروش التى اقبض عليها بأصابعى ، ستحل كل ازماتنا المالية ! ..

لقد شاءت الظروف بعد ذلك ان امسك باصابعى الوف الجنيهات .. ولكن هذه الالوف لم تهزنى ولم تبهرنى ، كما هزتنى وبهرتنى العشرة القروش ..

وحملني احد المشايخ على كتفه ليعود بي الى القرية ! واستغرقت في نوم لذيذ مريح وانا قابضة بكل قوتي على الثروة الضخمة ! ولما وصلت الى امي ، فتحت اصابعي واعطيتها مال قارون ! واحسست بذراعيها وهي تضمني في حنان .. واستغرقت في نوم عميق لذيذ ..

ثم يعد ابي يقصر جهوده على تدريب اخي خالد على الغناء .. بدا يدربني انا ايضا !

وداع صيت الطفلة الصغيرة في القرى المجاورة ! وخرج هذا الصيت وراء الحدود .. حدود القرى المجاورة ! وطالت المسافات التي كان يجب ان نقطعها مشيا على الاقدام .. وارتفع دخلنا حتى اصبح في قدرتنا ان نركب قطار السكة الحديد .. ولكن في الدرجة الثالثة !

ومازلت اذكر السعادة التي شعرت بها وانا اركب القطار لاول مرة في حياتي . كان القطار المسافر من محطة السنبلاوين الى محطة ابو الشقوق . ودخلت عربة القطار ، ووقفت على المقعد اطل من النافذة ، ووالدي يمسك بذيل ثوبي ! ثم فوجئت بمنظر غريب اثناء سير القطار ! لقد بدات اشجار النخيل واعمدة التلغراف تجري امامي ! لقد هزني هذا المشهد العجيب الى درجة انه لما وقف القطار في محطة « ابو الشقوق » ، امسكت بالنافذة ورفضت النزول !

ووعدني والدي اني ساعود الى ركوب القطار غدا .. ولكني رفضت ان اصدقه ! وهنا اقسم لي بالله .. فصدقته ، ونزلت من القطار !

وذهبنا الى الحفلة .. وكانت مقصورة على القادرين ، فان ثمن التذكرة كان قرشا !

وافتتحت الحفلة بخناقات بين الجمهور استغرقت ساعة كاملة وبدات اغني التواشيح .. فعاد الخناق ، واستمر ساعة اخرى

ودامت الحفلة اربع ساعات منها ثلاث ساعات ونصف ساعة خناقات ومعارك بين المتفرجين واستغرق الغناء نصف ساعة فقط!

وكانت الخناقات والمعارك من لوازم الافراح في الريف .. ولهذا كان محصولنا الغنائي لايتجاوز عادة اكثر من نصف ساعة ..

وفي بلدة « ميت رومي » في البحر الصغير بشمال الدلتا وقعت لنا مفاجاة لم نحسب حسابها !

بدأنا الغناء ، فلم يحانق احد ! تركنا الجمهور نغني بلا مقاطعة ولا معارك ! وغنينا كل ما عندنا في نصف ساعة .. والمفروض ان تستمر الحفلة الى الفجر ! وتصور ابي ان ساعته قد توقفت .. ثم رأى العقرب يتحرك ! وحار ابي وافراد التخت كيف يواجهون هذه المفاجأة وقرر ابي ان يعيد على المستمعين نفس التواشيح التي سمعوها منذ نصف ساعة ! ولم يحتج الجمهور على الاعادة والتكرار

ورحنا نعيد نفس التواشيح للمرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة !

وبعدها بدأ والدي يستعد للمفاجآت .. بدأ يستعد للحفلات التي لا يتعارك فيها الجمهور ولا يتضارب ! وبدأ يمرننا على حفظ اغاني جديدة زيادة على الاغاني التي كنا نكررها في كل حفلة ولا تستغرق في مجموعها اكثر من نصف ساعة !

وفي ذات يوم ذهبنا الى الغناء في قرية مجاورة للقرشية بالقرب من مدينة طنطا .

وقبل بدء الحفلة قادنا صاحبها الى السرادق الذي سنغني فيه .. واشار الى فانوس ، وقال لنا : لما تكسر الفانوس ده .. ادخلوا الحجرة دي !

ولما ظهرت على وجه ابي علامات الدهشة قال الرجل : بقى انا لاباجوز ابني ولا بنتي ! حابسكم علشان اهل البلد المجاورة يحضروا نقوم نضربهم !

ولما بدأت اغني ، كنت اغني للفانوس ! كنت اقول للفانوس : سبحان من ارسله رحمة لكل من يسمع ، او يبصر ! وكنت اركز عيني وعقلي وكل حواسي في هذا الفانوس .. حتى اهرب عندما يتكسر !

وفعلا انكسر الفانوس !

وبدأ الضرب بالعصي والنابيت !

وبعد انتهاء الحناقة خرجنا من المخبأ .. وفوجئنا بان اهل القرية المجاورة هم الذين ضربوا الذين اعدوا الكمين لضربهم !

❁❁❁

ولم تكن متاعبنا مقصورة على المعارك والخناقات .. كانت بعض متاعبنا بسبب بساطة بعض اهل الريف .

وحدث أن اتفق معنا أهالي قرية مجاورة لمركز ببروه على احياء فرح فيها .. ومشينا عدة كيلو مترات من قريتنا الى مركز استبدوين ، ثم ركبنا القطار الى المنصورة ، ثم ركبنا قاربا صغيرا عبر بنا النيل الى طلخا ، ثم ركبنا قطار الدلتا الى ببروه .

ولم نجد أصحاب الفرح في انتظارنا كما هي العادة .

وبرر والدي هذا التصرف بأنه لابد أن أهل الفرح انشغلوا في اعداد الفرح .

واستأجرنا مكانا « حمرا » ، وذهبنا بها الى القرية التي سيقام فيها الفرح ، وسألنا عن بيت صاحب الفرح فقادونا اليه .

ودار الحديث التالي بين والدي وصاحب الفرح .

والدي : أنتم نسيتونا والا ايه ؟..

وسكت صاحب الفرح

والدي : يعني لم ترسلوا « ركوبة » الى المحطة ؟

و صاحب الفرح ، وظهرت على وجهه علامات الدهشة .

والدي : موش النهارده الخميس .. ميعاد الفرح ؟

فأجاب صاحب الفرح ببساطة :

ـ ما احنا احلناه !

والدي : احلتم ايه ؟

ـ احلنا الفرح !

والدي : طيب ما ترسلتش لنا خبر له ؟

وعادت الدهشة الى وجه صاحب الفرح وقال : كل البلد عارفه ان الفرح تاجل ، ولد يا خليل ؟ ولد يا حسين ؟ ولد يا سيد ؟ موش احنا اجلنا الفرح ؟

وهز القرويون خليل وحسين وسيد رؤوسهم بالموافقة .

وقال صاحب الفرح ببساطة : شايفين : كل الدنيا عارفه اننا اجلنا الفرح !

ورجعنا كما حضرنا ! عدنا الى محطة ببروه ثم ركبنا قطار الدلتا الى طلخا ، ثم عبرنا النيل بالقارب الى المنصورة ، ثم ركبنا القطار الى السنبلاوين ، ثم مشينا على الاقدام الى قريتنا الصغيرة !

وكان والدى يتتبع باهتمام تصرفات كبار المطربين والمطربات حتى اقلدهم وأوهم الناس أننى مطربة كبيرة !

واكتشف ابى ذات يوم اكتشافا هاما ! اكتشف ان الشروط الفنية تنص على أن المطرب « الصبيت » الشيخ حسن جابر يشرب الكازوزة فى الحفلات ! فاضاف الى عقودنا بندا جديدا يتعهد صاحب الحفلة بتنفيذه ..

وكان هذا البند هو ان يتعهد الطرف الاول بان يقدم للطرف الثانى « أم كلثوم » زجاجة كازوزة !

ومافيش حد احسن من حد !

وكنت سعيدة بحياتى ! سعيدة بالحمار الذى اركبه ، وطبق المهلبية الذى التهمه .. وزجاجة الكازوزة التى اشربها !

وبدأت شهرتنا تملأ الآفاق ! وكانت الآفاق هى القرى المجاورة لمركز السنبلاوين ! ووصل اجرى مع الفرقة التى تتألف من خمسة من المشايخ الى مائة قرش من كل حفلة نقيمها !

وبدأت شهرتنا تزحف !

وعندما ارتفع اجر الفسوقة من مائة قرش الى مائة وخمسين قرشا اصبحنا أثرياء ...

ورأى ابى ان نقلد الاثرياء ! انهم يلتقطون لاولادهم صورا فوتوغرافية .. فلماذا لانذهب نحن أيضا الى المصورانى ؟

وذهبنا الى مصورانى فى مدينة الزقازيق . واصبت أنا واخى بنوبة من الضحك أمام المصورانى ! فقد كان المصورانى يقف وراء الكاميرا تحت الملاءة السوداء وكان منظرا غريبا جعلنا نغرق فى الضحك !

وراح المصورانى يرجو ابى ان يمنعنى انا واخى من الاستمرار فى الضحك حتى يلتقط الصورة .. فان اصول التصوير يومها كانت تقضى بالا نضحك ابدا صاحب الصورة ! يجب ان نقف جامدا كالتماثيل حتى يلتقط المصور صورته ! وبعد محاولات متكررة تحولنا الى تماثيل ! والتقطت اول صورة لنا !

وكان ابى غير مستريح لفكرة اشتغال ابنته بالغناء . كان لايمانع فى ان يغنى ولده .. اما ان تغنى ابنته فلا !

وكان هذا هو السر فى انتقال الفنى وضعته على برامج مدة سنوات كان والدى يريد ان ينسى ان ابنتـــه هى التى تغنى ، كان يريد ان يوهم نفسه أن أم كلثوم ولد لا بنت !

« وسحت » بقدمى الصغيرتين القطر المصرى قرية قرية .. قبل ان اضع قدمى فى القاهرة .

وشاء حظى ان اتراك فى كل قرية مـــددا من المعجبين بصـــوت الطفلة الصغيرة !

وراى والدى ان يستغل نجاحى وشهرتى .. فاصر على فرض شرط اضافى على اصحاب الحفلات فى القرى المجاورة !

وكان الشرط الاضافى هو ان يتعهد صاحب الحفلة بان يقدم لنا حميرا تحملنا من قريتنا الى مكان الحفلة ذهابا وايابا !

وكان « الطرف الاول » يتقـــد نصف الاتفاق .. ويهرب من تنفيذ النصف الثانى !

كان اصحاب الحفـــلات يرسلون لنا الحمير لتحملنا الى مكان الحفلة .. فاذا انتهت الحفلة اختفت الحمير ! وهـــكذا كنا نركب « ذهابا » ونمشى « ايابا »

ولم تكن المسافات التى نقطعها مشيا على الاقدام مســـافات بسيطة .. كانت عادة تتراوح بين كيلو مترين وخمسة كيلو مترات

ولم يكن السير على الاقدام اصعب متاعبنا !

كان الانتظار على ارصفة المحطات هو تعبنا الاكبر ! فقد كنا فى كثير من الايام نقف على رصيف المحطة ١٢ ساعة كاملة !

كانت القطارات تمر امام المحطة مرتين ، مرة فى الساعة السادسة صباحا ، ومرة فى السادسة مساء !

وكنا بعد انتهاء كل حفلة نعود الى المحطة .. وفى كثير من الايام كنا نصل الى الرصيف بعد قيام القطار بدقائق .. فقـــد كانت قطارات زمان مع الاسف تتحرك فى مواعيد محـــددة ! ! ولهذا كنا نضطر الى الانتظار ١٢ ساعة على الرصيف !

وكان الانتظار فى معظم الايام وسط البرد الشديد او تحت الامطار الغزيرة التى كانت تحرص على استقبالنا فى كل محطة نلجا اليها !

وفى أحد الايام عرف اين سر مفتاح باب استراحة الركاب !

وكان المفتاح هو حنجرة ام كلثوم !

لقد اقنع والدى ناظر المحطة بان يفتح لنا استراحة الركاب . وكان الثمن هو ان اغنى للناظر !

وغنيت على ارصفة مئات من محطات الوجه البحرى

وبدات اكتشف ان الدنيا اكبر من الوجه البحرى . وان هناك مدنا اخرى لا تقل اهميه عن المنصورة والزقازيق !

اكتشفت ان هناك مدينة جديدة اسمها القـــاهرة ! اكتشفتها بمحض الصدفة !

فقد حدث فى اثناء حديث عابر بين الثرى عز الدين بك وناظر عزبته ، ان قال صاحب العزبة انه سيقيم فى قصره بطوخان كعادته كلّ عام احتفالا بليلة المعراج ، فقال ناظر العزبة !

والله عندنا بنت صوتها حلو !

فقال صاحب العزبة : هاتها تغنى لنا !

وسافرنا مع ناظر العزبة لاول مرة الى القاهرة ! ولا اذكر شيئا عن المدينة الكبيرة . ان صورها الصـــاخبة لم تعش فى ذاكرتى !

كل ما اذكره هو محطة باب اللوق ! فقى هذه المحطة اشترى لى والدى « كراملة » اعجبتنى وجعلتنى اتصـــور ان القاهرة بلد « الكراملة » الحلوة

وذهبنا الى قصر عز الدين بك بكن ، وخـــرج صاحب القصر لاستقبلنا ، ونظر لى من تحت الى فوق عدة مرات ثم ســـال فى دهشة « هى دى اللى ح تغنى فى الوليد » ؟

ولما هز ناظر العزبة راسه موافقا صاح عز الدين بك ' ايه العب العيال ده ! بلاش كلام فارغ ! انزل مصر حالا ' وروحوا هاتوا الشيخ اسماعيل سكر ! يحيى لنا الحفلة !

ووضعونا مع الخدم فى البدروم . ولم اندهش من هذه المعاملة ، ولم اشعر باى اهانة لحقتنا ! وجلسنا الساعات فى البدروم والشيخ اسماعيل سكر يغنى للمدعوين ! وبعد ان اطرب الشيخ ســـكر

المدعوين واطمأن صاحب الحفلة على نجاح حفلته ، قال الثرى عز الدين بكن للخادم « هاتوا البنت تغنى .. ونشوف حتقول ايه ! »

وخرجنا من البدروم الى الدور الاول .

وصعدت الى كنبة وبدأت اغنى !

واستعادنى الحاضرون عدة مرات ! واستعادنى معهم المطرب الكبير الشيخ اسماعيل سكر نفسه !

ثم جاءنى احد الخدم وقال لى : البت عاوزه تشوف البنت فى الحرملك !

وصعدت الى الحرملك انا واخى خالد .. وادخلونا صالونا كبيرا مليئا بالاثاث الفاخر .

وسمعنا صوتا يقول لنا : اتفضلوا !

وتلفتنا نبحث عن مصدر الصوت .. فلم نر احدا فى الصالون !

وعاد الصوت يقول لنا : اتفضلوا .. اتفضلوا !

وعدنا نبحث عن صاحب هذا الصوت فى ارجاء الصالون !

وعاد الصوت يقول : اتفضلوا .. اتفضلوا .. اتفضلوا !

وهنا رأينا صاحب الصوت .. انه طائر فى قفص !

واصبت بالفزع وصرخت : غراب يتكلم ! غراب يتكلم !

وعدت مع اخى من الصالون فى فزع ! واصطدمت عند الباب بحرم عز الدين بك بكن وانا ارتجف من شدة الخوف !

وراحت تهدىء من روعى وتسألنى عن سبب فزعى ؟ فرحت اصرخ : غراب ! غراب يتكلم !

وضحكت صاحبة البيت وقالت لى انه ليس غرابا .. انه ببغاء .. والببغاوات تتكلم !

وعدت الى قريتى احدث اصدقائى وصديقاتى عن القاهرة بلد العجائب .. انها البلد التى تتكلم فيها الغربان !

« عنـــدما نتعلم نعـــرف
مـــكاننا بين العلمـــاء »
وقد عـــرفت مـــكاني « ! !
ام كلثوم

من مذكرات أم كلثوم

قرار من أبي : لن نعود إلى القاهرة !

كنت أغنى بلا احساس ولا شعور !

كنت أردد الاغانى التى اسمعها من ابى بنفس الطريقة التى يردد بها التلميذ الصغير جدول الضرب ، وقواعد النحو والصرف !

ثم غيرنى فونوغراف !

كان فونوغراف العمدة ! فقد سمعت على هـــذا الفونوغراف صوت الشيخ ابو العلا ، وهزنى صوته . كنت اشعر وانا اسمعه انه يغنى لى وحدى . وسمعت صوته مئات المرات وهـــو يغنى ! افديه ان حفظ الهوى أو ضيعا ! وسمعته وهو يغنى «وحقك انت المنى والطلب » .. وقصيدة « غيرى على السلوان قادر »

كان الفونوغراف يسكت .. ولكن صـــوت الشيخ ابو العلا كان يستمر يغنى فى اذنى !

كان اطفال القرية يرددون اغنية « انا نازلة ادلع املا القلل » . اما انا فكنت اعيش مع اغانى الشيخ ابو العلا ، وكنت اتصور انه قد مات ! لم يخطر على بالى ان صاحب هذا الصوت يعيش فى الدنيا التى اعيش فيها !

ومرت السنون ..

وفى يوم من الايام كنت فى محطة السنبلاوين ، فسمعت صوتا يقول : الشيخ ابو العلا هنا !

ولم اصدق اذنى !

ورأيت ابى يسرع نحو الرجل الكبير ويصـــافحه فى احترام . واسرعت وراءه وامسكت يده ، ورحت احدثه على الفور عن اعجابى وتحول الشيخ ابو العلا عنى ليستأنف حديثه مع الاخرين .. ولكنى منعته من ان يكلم احدا غيرى ! امسكت بيده ورحت الح عليه ان

باتي معي لزيارتنا في القرية . واحس الرجل الكبير بتعلقي به ، وجاء معي الى بلدنا .. الى قرية « طماي » !

ودخلت الى أمي . قلت لها : ان اهم انسان في الدنيا سيتناول معه الغداء . كل حاجة عندك قدميها له . اذبحي كل الفراخ اللي عندنا واللي عند الجيران !

كنت لا اصدق عيني ! كنت اتصور انني ارى « مناما » ولا اعيش في الحقيقة !

ولما جلست امامه طلبت منه ان يغني ! فطلب مني ان اغني له اولا ! ورفضت ! فقد شعرت انني لن اجسر على الغناء امام هذا العملاق . واحسست انه ليس من المعقول ان اخدش اذني هذا المغني العظيم بصوتي ..

ولكن ترددي ذاب امام قوة شخصيته . وبدأت اغني له .. وبدأ هو يغني لي !

وشعرت ان في بيتنا اجمل احلامي .. واحسست بضربات قلبي وانا اسمع صوته ! كنت اسمع قيثارة اجمل من الفونوغراف . فقد كان الشيخ ابو العلا اعظم مغن سمعته في حياتي . ولا يزال هذا رأيي حتى اليوم انه احسن من غنى . واحسن من لحن الغالي قبل الالفاظ ..

وكان الرجل الكبير كريما معي . فقد اصغى لغنائي . اصغى يغني لي وحدي مدة ساعات .

وانشرح الشيخ ابو العلا على والدي ان جرة قرية « طماي » الصغيرة ، وينتقل الى القاهرة . فدهشت اني من هذا الانشراح !

وقال والدي : ان طماي بلدنا وعارفانها وعارفينها . ولايمكن ان نترك طماي !

ورد الشيخ ابو العلا : ان مستقبل ابنتك اكبر من « طماي » .. وحرام ان تحبس هذه الموهبة في قرية صغيرة !

ولاول مرة في حياتي بدأت اتاثر والدي !

وغير اني موضوع الحديث !

ولكني رحت « أزن » والح وارجو . وعاد اني يغير موضوع الحديث !

ولكنى لم اتعب من « الزن » والالحاح ، الى ان وقع لى حادث منع فكرة الاقامة فى القاهرة من كل احلامى !

فقد اتفق احد اهالى القاهرة مع ابى على ان اغنى فى فرح ابنته فى كوم الشيخ سلامة المجاور لحى العتبة الخضراء بالقاهرة .

وعند سفرى الى القاهرة احذت معى « تحوشة العمر » .

انها الخمسة عشر جنيها التى ادخرتها من مصروفى « وعيدتى » فى الاعياد .

ونزلنا فى بيت صغير .. انه بيت صاحب الفرح .

وقبل خروجنا من البيت لاحياء الحفلة ، وضعت ثروتى الضخمة فى جيبى .

ولما انتهت الحفلة وعدت الى البيت ، اسرعت الى تحوشة العمر لاخرجها من جيبى .. فلم اجدها ! اختفت تحوشة العمر التى تصورت انى سأشترى بها مدينة القاهرة كلها !

ولم اصدق عينى ! وحت ابحث فى جيبى وجيب اخى ، وتحت الكرسى .. فلم احد لها اثرا ! ولم اذرف الدموع . كانت تسكتنى اقوى من الدموع !

واخفيت الحادث عن ابى فى اول الامر .. ثم اضطررت ان اعترف . ولن اقول الان ما قاله ابى لى وقتها .

وعاهدت نفسى الا ازور القاهرة بعد ذلك .

ولكن نداء القاهرة كان اقوى من ضياع اموال قارون !

فقد عدنا للقاهرة مرة اخرى . واقمنا فى حجرة طوكاندة جوردون -اوس ، التى تطل على شارع فؤاد (٢٦ يوليو الان) . ومن شرفة حجرتى بهذا الفندق رأيت السينما لاول مرة فى حياتى . فقد كانت تطل على سينما « جوزى بالاس » . رأيت رجالا ونساء يتحركون على الشاشة البيضاء . رأيت شابا قتل فتاة . رأيت دنيا غريبة لم اشهدها لا فى طفولتى ولا فى الزقازيق .. ولا حتى فى المنصورة !

ولم يخطر ببالى وانا واقفة فى شرفة حجرتى بفندق جوردون هاوس ان ام كلثوم نفسها ستظهر فى يوم من الايام على هذه الشاشة البيضاء !

وكان فى حجرتنا بالفندق ثلاثة سراير .. لابى ولاخى ولى .

وكنت اتصور ان هذا الفندق المتواضع هو اكبر فنادق القاهرة . فلم اكن يومها قد سمعت عن شرد وسميراميس !

وكانت بحجرتنا الصغيرة شرفة تطل على شارع فؤاد ، وشرفة اخرى تطل على المدرسة الاعدادية . وكان الشيخ ابو العلا يحضر الى زيارتنا ، واجلس بجانبه استمع الى كلامه وغنائه .

كنت اسهر طوال الليل اسمع احب الاصوات الى قلبى ! فقد كان غناؤه احب لى من النوم !

وفى احدى الليالى ونحن جالسون فى الشرفة غنى لى الشيخ ابو العلا ثم التفت الى وقال : انا غنيت لك كثير .. ما تغنى لى بقى

وغنيت له !

وسكت الشيخ طويلا .. ثم رايت دمعة تسقط من عينه ، ثم قال : لن افترق عن هذا الصوت طول عمرى !

وفعلا : لم نفترق منذ تلك اللحظة . كان يصحبنى مع ابى واخى فى كل حفلاتى وفى كل مكان اذهب اليه .

وغيرنى الشيخ ابو العلا . علمنى ان افهم الكلام قبل ان احفظه واغنيه !

فقد كنت حتى هذه اللحظة مثل ببغاء الثرى عز الدين يكن ، اردد الكلام بلا فهم ولا اهتمام !

وبدات الكلمات غير المفهومة تتعثر فى فمى ، وترفض الخروج من بين شفتى !

وفى احدى الليالى كنت اغنى مع افراد الفرقة : جل من طرز الياسمين فوق خدك بالجلنار ، واصطفى ذا الجمان الثمين معدنا من لماك العقار !

ووقفت كلمة « الجمان » فى فمى ، ورفضت الخروج من بين شفتى ! وتركت باقى افراد الفرقة ينطقون الكلمة وحدهم !

وتصور ابى اننى نسيتها ، فلم يعر الامر اهتماما !

ولما تكرر وقوفى عند كلمة « الجمان » احس والدى بان المسالة ليست مسالة نسيان ، فسالنى ، لماذا لا اغنى هذه الكلمة .

واجبته : موش عارفة اقولهـا ازاى ! موش عارفة اقولها وانا باضحك والا اقولها وانا مكشرة .. انا موش فاهمة معناها ايه !

وكانت هذه هى المرة الاولى التى اواجه فيها والدى بما تعلمته من الشيخ ابو العـــلا .. وهو انه يجب ان افهم المعانى قبل ان اغنى الكلمات !

وعن طريق الشيخ ابو العلا عرفت الشاعر احمد رامى !

فقد التقى احمد رامى بالشيخ ابو العلا ذات يوم ، وسأله : فيه بنت بتغنى اسمها ام كلثوم .. ايه رايك فيها ؟

فأجاب ابو العلا : دى بتقول لروحها « آه » !

وفى احدى حفلاتى بحديقة الازبكية اقترب منى شاب وقال لى : انا احمد رامى !

ورايت امامى لاول مرة الشاعر الذى اغنى اشعاره !

واردت ان اقول لهذا الشاعر : اهلا .. ففتحت له قصـــيدته « الصب تفضحه عيونه » .. وكانت مفاجأة له .. !

وكان رامى يحب الغناء .. وكنت اعشق الشعر .

وكانت هوايتى للشعر قد بدأت بكتاب وجدته مع اخى ! اخذته منه لاتفرج عليه . كان الكتاب هـــو قصة « العبرات » لمصطفى لطفى المنفلوطى !

وامسكت الكتاب لاتفرج عليه ، واعيده الى اخى !

وفتحت الصفحة الاولى .. ولم اترك الكتاب الا بعد ان وصلت الى الصفحة الاخيرة . وعشقت المنفلوطى . قرأت له « النظرات » و « العبرات » وكل القصص التى كتبها !

وفى احد الايام شعرت بجوع للقـراءة . اردت ان اقرأ . رحت اقلب كتب القصص التى توجـــد فى بيتنا الصغير ، فوجدت اننى قرأتها كلها . قرأتها عشرات المرات . وبدأت ابحث عن كتاب جديد وفى تلك اللحظة بدأت هواتى للشعر . كنت احفـــظ الشعر ولا افهمه . كنت اتصوره كلمات موزونة سعدها الشعراء للغناء .

وفى احد الايام ، رحت ابحث فى حجرتنا الصغيرة عن كتاب اسلى به نفسى . وفتحت ديوان شعر ابن الفارض . وقرات البيت الاول فى القصيدة .. ففهمته . ورحت اقرا باقى القصيدة فى لهفة .

وبعد ديوان ابن الفارض قرات ديوانى ابن الرومى والبحترى . ثم قرات الاغانى الذى يتالف من ١١ جزءا ، واخترت منه قصائد جديرة بان تغنى .

ثم قرات « الامالى والحماسة » . وبدات اشترى دواوين الشعراء بعد ان كنت استعيرها من ابى . وقرات ديوان المتنبى والشريف الرضى ومهيار الديلمى .

واصبحت اعشق الشعر !

اصبحت اقرا القصيدة بنفس اللهفة والمتعة والشغف التى تقرا بها فتاة اول قصة غرامية !

حمد رامى الفضل كل الفضل فى تذوقى الشعر وتفهم معانيه . كان يقدم لى فى كل مرة يزورنى فيها ديوان شاعر .

وتعلمت موازين الشعر ، لدرجة اننى بدات احس بالبيت المكسور ، والبيت الذى يقف على قدميه !

ولكنى لم افكر فى يوم واحد ان انظم بيتا واحدا من الشعر . لعل السبب هو كثرة قراءتى .. ولاننى قرات الشعر الجيد وتذوقته .

ولولا قراءاتى لحاولت ان انظم عددا من القصائد اعبر فيها عن مشاعرى . ولكننا عندما نتعلم نعرف مكاننا بين العلماء . وقد عرفت مكانى !

واستمرت صداقتى باستاذى الشيخ ابو العلا سنين طويلة . كنت ابحث عنه فى كل مكان لاستظل برعايته واستاذيته وكنت اطالبه فى كل مرة نلتقى فيها بان يغنى لى ! كان غناؤه هو غذاء روحى

وفجاة .. ثقل لسانه ، واصبح يتعثر فى نطق الكلمات .. ومع ذلك كان يغنى لى ! وعندما يخونه صوته اثناء الغناء كان يقول لى :

انت عارفة انا عاوز اقول ايه !!

وفى احدى الليالى فوجئت بوفاة الشيخ ابو العلا ـــ

وامتلأ راسي بقصائد الشعراء .. بعد ان امتلأت روحي بأغاني الشيخ ابو العلا .

ولم استطع ان ابقى فى بيتى .

ولم احتمل ان اذهب الى بيته !

مشيت فى شوارع حى الزمالك شارعا شارعا ، ولم اذرف دمعة واحدة !

مشيت الى شارع فؤاد ثم الى شارع الملكة نازلى ، ثم عدت امشى فى شوارع الزمالك مرة اخرى ! كنت اتصور اننى سأغسل شوارع القاهرة فى تلك الليلة بدموعى . ولكن دموعى تحجرت فى عينى .

وكان يمشى معى اخى خالد وعازف الكمان سامى الشوا . كانا يحاولا اقناعى بالبكاء تحت اى سقف . ولكننى كنت ارفض .

وقضيت الليل هائمة على وجهى . ابكى بغير دموع استاذى الذى علمنى كيف اعبر عن المعانى بالنغمات

وتعرفت بكبار الموسيقيين وبالاستاذين حسنى انور وامين المهدى وهو ابرع من عزف على العود .. ونشأت بيننا صداقة عائلية .

واثناء اصطياف بالاسكندرية زارنى امين المهدى ودعانى لزيارة بيته الذى يطل على ترعة المحمودية . وفى هذا البيت التقيت بأول صديقة لى .

كانت تلميذة فى « الميردى دييه » . وكان اسمها روحية المهدى انها ابنة امين المهدى .

لقد اصبحنا صديقتين بعد ساعة من اللقاء . احسسنا تجاوبا عجيبا ، شعرت كل منا انها تعرف الاخرى منذ سنوات وسنوات !

وبدات صداقتنا تقوى على مر الايام .

ولما انتهت شهور الاصطياف وعدنا الى القاهرة كنت احرص على زيارة بيت امين المهدى كل يوم احد . فقد كان يوم الاحد هو اجازة روحية من مدرستها .

وكانت روحية تقيم فى بيت بباب الخلق يواجه دار الكتب . وفى كل اسبوع كنت اقطع المسافة من شقتى بعمارة بهلر بالزمالك الى ميدان بباب الخلق لألقى بصديقتى الصغيرة وافتح لها قلبى وتفتح لى قلبها ، وتحدثنى عن احلامها واحدثها عن احلامى .

وكانت القاهرة بالنسبة لى هى الطريق من الزمالك الى باب الخلق . فقد كنت لا اخرج من بيتى الا لاذهب الى روحية يوم الاحد ، أو لاذهب فى المساء الى حديقة الازبكية لافشى او عندما اذهب فى الليل الى الفرح الذى سأغنى فيه .

وفى خلال السنوات الاربع الاولى التى مضيتها فى القاهرة .. كانت العاصمة بالنسبة لى هى شارع فؤاد ١ ٢٦ يوليو الآن ١ وميدان قصر النيل وميدان عابدين وميدان باب الخلق .

فى خلال السنوات الاربع لم ادخل السينما مرة واحدة !

فى خلال السنوات الاربع لم ادخل محلا تجاريا مشهورا او مظلما كبيرا .

فى خلال السنوات الاربع لم ادخل الا مسرحا واحدا هو مسرح الماجستيك ، فقد كان والدى يحب روايات على الكسار

وكانت معلوماتى عن القاهرة هى ما اقرؤه فى الصحف والمجلات ، واسمعه من الناس .

ومع هذا الحصار الذى كنت اعيش فيه ، احببت القاهرة وعشقتها . كنت احس اننى اعيش فى اجمل بلد فى الدنيا . احببت اهلها .

وجدت فى هذه المدينة الحلوة عطفا واهتماما وتشجيعا . وجدت فيها مجدا لم يخطر لى على بال !

وفى يوم من الايام عاد والدى الى بيتنا وهو متجهم الوجه .. ودخل حجرته .. وناداى على والدتى ، فدخلت واقفلا الباب .

وسمعت همسا لم افهم به .

ولكنى رايت امى تفتح الباب ، وتبدأ فى حزم الحقائب .

وسألت امى ! ماذا جرى ؟

فسكتت ولم ترد .. استمرت تملأ الحقائب بالملابس .

وسألت والدى ، فقال بحزم : خلاص ! احنا راجعين بلدنا ! لن نبقى فى مصر بعد الآن .. ولن نعود اليها !

ودهشت من هذا القرار العجيب !

كيف نهجر القاهرة وقد التقيت فيها بمجد لم احلم به . كيف اهجر « ام الدنيا » بعد ان احببتها واحببت من فيها ، وبعد ان التقيت فيها بحظى .

ورحت الح على والدتى ان تبرر لى قرار والدى ! رحت اقول لها اريد ان اعرف لماذا سنهجر القاهرة .

واشارت لى والدتى الى مجلة ملقاة على الارض .

والتقطت المجلة . انها مجلة « المسرح » التى يصدرها الناقد المسرحى عبد المجيد حلمى .. ورحت اقلب صفحات المجلة فى لهفة .. فلم اجد ردا على سؤالى .

وعدت اقراها سطرا سطرا .

ثم سقطت المجلة من يدى !

لقد نشرت المجلة خبرا عجيبا عنى ! كان خبرا كاذبا عن سمعتى ولكن المرحوم عبد المجيد حلمى كان يعجب فى ذلك الوقت بالسيدة منيرة المهدية . وبدلا من ان يقدم لها باقة ورد .. رمى تحت اقدامها شرف المطربة الجديدة !

ولكن .. هل من العدالة ان يضحى ابى بمستقبلى بسبب خبر كاذب ؟

هل من العدالة ان تدفع الضحية ثمن سكينة الجزار ؟

ان والدى يعرف ان الخبر لا اساس له من الصحة .. فهل الطريقة للاحتجاج على الخبر ان نجمع ملابسنا ونهاجر الى قرية طماى ؟

ورحت استنجد باصدقاء ابى !

رحت ارجو كلا منهم ان يحضر لاقناع ابى بالعدول عن الهجرة من القاهرة .

وجاء الاصدقاء الى بيتنا ليحاولوا اقناع ابى بالبقاء فى القاهرة

قالوا له ان ابنته اصبحت مشهورة ، وان الشهرة ضرائب يجب ان يدفعها صاحبها ! واولى هذه الضرائب ان يحتمل نشر الاكاذيب التى نشرها عنه بعض المجلات الصفيرة .

ورفض ابى وساطة هذه الوفود . اصر على الهجرة الى قريتنا « طماى » .

وعندما استسلمت للامر الواقع . وجلست فى حجرتى اكتب خطابات وداع لصديقاتى ومعارفى . كنت اكتبها بدموعى .

وبين الخطابات التى كتبتها خطاب عصرت فيه قلبى ! ارسلته الى صديقتى التلميذة فى مدرسة « البردى ديبه » . لقد كتب هذا الخطاب بدموعى . حدثتها من قرار ابى . ورحت اودعها واودع القاهرة الحبيبة .. وكأننى اودع الدنيا كلها !

وجاءت اسرة المهدى الى بيتنا .. فوجدوا الحقائب معدة !

وتكلمت سيدات الاسرة ، ورحن يناقشن والدى فى قراره فى لباقة وحكمة ومنطق .

ولم يقتنع ابى !

ثم ركزن سهامهن على عاطفة ابى وحبه لى . قلن له ان قراره سيقضى على مستقبلى ! سيدفن المجد الذى كان ينتظرنى تحت تراب قرية طماى .

ولم يقتنع ابى .

واخيرا تكلم امين المهدى ..

قال لابى : ان معنى مغادرتكم القاهرة ان الخبر الذى نشرته مجلة « المسرح » عن ام كلثوم هو خبر صحيح .. فالناس تهرب من الحقيقة ، ولا تهرب من الاكاذيب !

وقام ابى من مقعده .. وبدأ يفتح حقائبنا ويخرج منها الملابس

وحتى تلك اللحظة كنت اقيم في القاهرة فترات متقطعة ، ثم اعود الى الريف ..

اما الآن ، من هذه السنة ـ ١٩٢٦ ـ فقد بدات اقيم في القاهرة بصفة اساسية .. ولكنها كانت اقامة صعبة جدا في البداية ..

[redacted]

انتهى الجزء الاول من مذكرات ام كلثوم ..

والسؤال الآن : كيف كانت القاهرة سنة ١٩٢٦ ؟ القاهرة التي ستشهد من الآن فتاة قروية .. ترتدي عقالا وبالطو ازرق .. وتغني المدائح النبوية ؟ ..

سؤال يجيب عليه الفصل التالي ، قبل ان نعود من جديد الى مذكرات ام كلثوم ..

□□□

في القاهرة غناء للرجال وغناء
للنساء • في القاهرة موسيقى
للفقراء ، وموسيقى للاغنياء !

القاهرة ٣٦

القاهرة .

١٩٢٦ .

البيضة فى مصر بمليم .

رطل اللحم بقرشين . مشفى بثلاثة قروش .

علبة السجاير ماركة « العنبرول » بقرشين .

الاوتوموبيل الفاخر خمسة محلات بـ ٣٦٠ جنيها .

الروايه المقررة على طلبة البكالوريا هى زهراب ورستم .

على افندى الكسار بربرى مصر الوحيد يمثل رواية البربرى فى الجيش .

نابغة مصر فى التمثيل يوسف وهبى يقوم ببطولة رواية الدنائع .

المستر سمسون رئيس النيابه المختلطة بالمنصورة يحضر حفل مدرسة المنصوره الاميرية

و .. نحن فى سنة ١٩٢٦ ..

السكان فى القطر المصرى كله عددهم محدود . بالضبط ١٢ مليونا و٢١٧ الف نسمة . من بين كل مائة من السكان فى مصر هناك ٢٦ يموتون بعد سنة من مولدهم . المرض وسوء التغذية سبب ذلك .

الذين يعرفون القراءة والكتابة فى مملكة مصر ـ مجرد القراءة والكتابة ـ عددهم ١٩٧ فردا فى كل الف من السكان .

الصحف فى مصر محدودة . الاخبار فيها محدوده ايضا . منها تلك العناوين المنشورة فى مقدمة هذا الفصل .

من الاخبار التى يبرزها مجلة « اللطائف المصورة » ايضا . خبر يقول « .. يشاع أن الحكومة المصرية تنوى فتح نفق من السيدة زينب الى محطة باب الحديد لمرور سكة حديد حلوان تحت الارض بعد أن تتحول قاطراتها من بخارية الى كهربائية » . ان الزحام سبب فى هذا المشروع . بطء القطارات سبب آخر . ان السفر بالقطار من القاهرة الى الاسكندرية يستغرق سبع ساعات . لهذا يسمون القطار « المستعجلة » !

تفس المجلة تنشر على عرض صفحة كاملة منها صورة كتبت تحتها قائلة « هذه صورة اتحفنا بها المصور الشهير الخواجة زولا لحضرات أعضاء لجنة الاحتفال بتكريم فخامة المندوب السامى جورج لويد واللادى قرينته بصفته ممثلا لانجلترا صديقة مصر ، الذى نحيى فيه رسول السلام بين الشعبين » !

هذه واحدة من مظاهر كثيرة تتفسخ المجتمع المصرى فى تلك الفترة . فبعد ثورة عظيمة قام بها الشعب سنة ١٩١٩ بدأت مصر تحارب نفسها .. بينما يتفرج عليها محتل غاصب وحاكم مستبد .

ولقد ادى انتكاس الثورة الى تفشى ظواهر مرضية فى المجتمع المصرى ..

فالانتهازيون والوصوليون منتشرون فى الحياة العامة . لخصهم سيد درويش منذ سنوات عندما غنى فى أوبريت « العشرة الطيبة » علشان ما نعلى ونعلى ونعلى .. لازم نطاطى نطاطى نطاطى !

والصراع دائر علنا بين الاحتلال ومجموعة من المثقفين الشبان انتخبتهم ثورة ١٩١٩ منهم طه حسين وتوفيق الحكيم والعقاد ومحمد حسين هيكل ، وفكرى اباظة .

والشكوى عامة من الانحلال الاخلاقى . بسببها نشرت المجلات صورة لـ « .. نفر من اعضاء جمعية الشرف التى تأسست فى القاهرة لنشر الفضيلة ونصح الشبان بالابتعاد عن الرذيلة » .

والرذيلة لها جمهور واسع يغذيها .

من هذا الجمهور الجنود الانجليز الذين يمرحون فى شوارع مصر ويسهرون لياليها . اماكن السهر تنحصر بين ميدان الاوبرا فى القاهرة وبين شارع عماد الدين والفجالة . فى شارع عماد الدين تستطيع أن تشرب البيرة والويسكى . اذا زدت « العرقى » فانيه

الى الفحالة . « البوظة » فى شارع كلوت بك . على امتداد هذه الشوارع تستطيع أن تقرأ هذه اللافتات « خمارة مانولى » ، « بار خرستو » ، مقهى « كومتى » ، بار « بنايوتى » خمارة « خرالمبو »

واذا سرت فى شارع محمد على تجد على يمينك وعلى يسارك دكاكين صغيرة علقت على جدرانها آلات الطرب من عود ورق ودربكة فوق الدكاكين اعلانات بأسماء اصحابها من أهل الفن . « الاسطى حميدة » مثلا . عوادة . « الاسطى زوبة » . عالمة . « نعيمة المصرية » ارتيست .

داخل هذه الدكاكين توجد فئة من المتعهدين تسمى « المطيباتية » ان « المطيباتى » تتفق مع الزبائن ويقتسم الاجر . وفى ليلة الفرح يرتدى الملابس المزركشة ويضع خاتما فى اصبعه . وطوال غناء « العالمة » فان المطيباتى مسئول عن استمرار آهات المعجبين من الجمهور فى كل مكان من السرادق .

اذا وصلت الى شارع عماد الدين فسوف تجد كازينو دى بارى مسرح البرنتانيا . مسرح الاجبسيانا . الريتسانس . الابى دى روز الكوزمو . ثم .. مسرح رمسيس .

هنا تجد نوعا آخر من اهل الفن والطرب والموسيقى .

ان فى القاهرة موسيقى للفقراء .. وموسيقى للاغنياء .

فى القاهرة غناء للرجال .. وغناء للنساء .

فصاحب الفرح .. عندما يكون ثريا .. فانه يدعو نوعين من المطربين .. مطرب له وللوجهاء . واخر للجمهور العادى .

* ان مطرب الاغنياء يرتدى بدلة . وهو صيت معروف باسمه الشيخ حامد مرسى .. اسماعيل سكر .. عبد اللطيف البنا .. الخ

ومطرب الفقراء يرتدى الجلباب . انه صيت معروف بصفته . من هؤلاء مثلا « فرقة الخضرى » والقهوجى » وحسين الكوجى » وشحات الحلوانى .. الخ .

● مطرب الاغنياء يحيى الليلة الرئيسية . ليلة الزفاف .

ومطرب الفقراء يحيى الليالى السابقة على الزفاف .

● وعندما يغنى مطرب الاغنياء يستأجر الثرى ماكينة كهرباء .

[illegible] في رأس [illegible] ..
[illegible] مع كتاب [illegible] ..

فالمدعوون كلهم وجهاء. اما عندما يغنى مطرب الفقراء فان صاحب الفرح يستأجر كلوبات غاز .

● واذا اجتمع المطربان فى ليلة واحدة فان مطرب الاغنياء يغنى فى الحفل . بينما الآخر يغنى فى الاستراحة !

● مطرب الاغنياء مفرغ للغناء . ومطرب الفقراء غير متفرغ . لا ـــطبع .. ولذلك كان من الشائع أن نعمل بأكثر من حرفة .. من بينها الغناء أو التلحين . فنجد فى شوارع القاهرة لافتة كتب عليها « دائع يانصيب وسجاير .. ومغنى » . لافتة أخرى « ملحن انانيد ومقرىء مدائح نبوية ومشخص » . لافتة ثالثة « حانوتى ومقرىء ومشخصاتى » . رابعة « دار الجيـــلانى والتشخيص والتلحين » ! .

وعندما بدأت ام كلثوم تغنى فى القاهرة فلقد كانت ما تزال تنتمى الى الدائرة الثانية : صالح عبدالحى يغنى فى ليلة الفرح ، وهى تغنى فى الليالى السابقة على الفرح . هى نفسها تأتى الى الفرح راكبة ، ثم تعود بعد الفرح سيرا على الاقدام . هى نفسها فقيـــرة ، تغنى المدائح النبوية . ترتدى العقال على راســـها وبالطو أورق على جسمها . ملابس متواضعة . ومازال عليها ان تحارب لكى تدخل الدائرة الاخرى المغلقـــة : دائرة المطـــربين المشهورين او نصف المشهورين . ان عليها أن تفعل ذلك مع الانحناض الشـــديد فى الاحترام الذى يعطيه المجتمع لاهل الطرب .

ان كلوت بك مثلا قدم صورة حية لذلك عندما سمح لنفسه فى كتابه « وصف مصر » يقـــول : « .. والمغـــنون المصريون الذين صناعتهم الغناء ســـمون بالآلاتية مفرد الاتى . وتتألف منهم فى مصر طبقه محتقرة فاسدة الاخلاق . اذا جئ بهم الى منازل الخاصة تقاضوا اجرا لا يتجاوز ما يعادل ثلاثة فرنكات الى اربعة فى الليلة الواحدة . والمدعوون لسماعهم يغـدقون عليهم عادة من محض كرمهم شيئا من المـــال يضاف الى تلك الاجرة الزهيدة . وتقدم اليهم اثناء الغناء المشروبات الخمرية كالعرقى وغيره . وهم يفرطون فى شربها . وتحدث احيانا وقد لعبت الخمر بعقولهم ان يفقـــدوا رشدهم ويسقطوا على الارض . وفى مصر مغنيات يسمين بالعوالم ، وهى كلمة اطلقها الاوربيون على جميع الراقصـــات من غير تمييز ولا اســـتثناء » .

ان كلوت بك يصف الغناء والموسيقى فى مصر خلال القرن التاسع

عشر . ومع ذلك فحتى هذه السنة ـ ١٩٢٦ ـ كانت النظرة الى الفن عموما لم تتغير بعد كثيرا .

فعندما بدا توفيق الحكيم يكتب للمسرح فى القاهرة خلال العشرينات وصفه احد اصدقائه قائلا انه « .. منغرط فى زمرة اهل الفن والعياذ بالله » ! . من مذكرات توفيق الحكيم .

وعندما عبر المرحوم زكريا احمد لابيه عن رغبته فى العمل بالغناء والتلحين قال له والده الشيخ احمد صقر مرزبان « بقى يا ابنى نبقى من عيلة مرزبان .. وتطلع من بتوع بالبل ياعين ؟ ! » .. مذكرات زكريا احمد .

وهذه النظرة لم تقتصر على الشخص العادى .. بل هى ممتدة الى الحكومة ايضا . ان تطوير ورعاية الفن ـ هذا راى الحكومة ـ هو من اختصاص وزارة الاشغال ! انه كوصف الطرق وبناء الجسور والترع !

وعندما نشرت الصحف فى سنة ١٩٢٦ خبر ايفاد اول بعثة فنية مصرية قالت « اوفدت الحكومة المصرية فى العام الماضى اول بعثة لدراسة التمثيل مكونة من فرد واحد هو زكى افندى طليمات الموظف بوزارة الاشغال » .

ووزارة الاشغال هى التى اشرفت على اقامة اول مسابقة فنية فى سنة ١٩٢٦ . وكانت الجوائز الاولى فيها من نصيب : زكى رستم فى التمثيل التراجيدى . بشارة افندى يواكيم فى التمثيل الكوميدى .. السيدة فيكتوريا موسى فى التمثيل الكوميدى للسيدات » و .. السيدة منيرة المهدية فى الغناء المسرحى .

ان منيرة المهدية هى سيدة الغناء فى مصر منذ سنوات طويلة مضت .. الى جانبها توجد السيدة نعيمة المصرية . السيدة توحيدة » السيدة فتحية احمد . الآنسة ام كلثوم !

والى جانب هؤلاء توجد من الممثلات : فيكتوريا كوهين وشقيقتها هزيت كوهين ، ماري منصور ، دولى انطون ، رتيبة رشدى وشقيقتها فاطمة رشدى ، دولت ابيض ، امينة رزق ، وابرز ستالى .

ان انتشار الاسماء الاجنبية فى الوسط الفنى سببه ان الفنانة فى مصر لم تكن قد دخلت بعد ملف التمثيل على نطاق واسع . بل ان فرقة دار التمثيل العربى ، عندما قدمت للجمهور رواية « بنت

السندر » سنة ١٩٢٦ ــ فاتها استندت دور المراة فيها الى الممثل حسن فائق . ونشرت له مجلة « المسرح » صـــــورة (براقة) بضفائر الشعر الطويلة والروح العاقع .

والصحف نفسها كانت تنشر بين وقت وآخر صور الممثلات اللامعـــات .. في أزياء الرجال ! مرة تنشر صورا لزينب صدقي وفاطمة رشدي بالطربوش والبدلة . ومرة تنشر صورا لفاطمـــة اليوسف وشقيقة مصطفى وعزيزة امير وأمينة محمد وفتحية احمد في ملابس (الافندية والخواجات) !.

و .. نحن في سنة ١٩٢٦

ان المظهر الرئيسي للاهتمام بالفن هو الصحف . ان الصحف والمجلات خصصت عددا من اكبر كتابها لنقد الحركة المسرحيـــة والغنائية والموسيقية . محمد التابعي يكتب عن المسرح في (الاهرام) .. التوفيـــق « حنـــدس » . ابراهيم المصري يكتب في مجـــلة « التمثيل » . زكي طليمات في « المقطم » . عبد المجيد حلمي في « المسرح » . سعيد عبده في دور اليوسف .. الخ .

ولكن النقد لم يكن أمرا سهلا . ان احد النقاد كتب كلمة خفيفة عن تمثيل الســيدة مارى منصور .. ولكن « .. السيدة لم تر رأيه»» فأرسلت وراءه نفرا من اصحابها ليلقوا عليه درسا في فن الكتابة.. وليسرهنوا له على ان المصا اقوى حجة من « القلم » !

صحفي آخر .. « هدده ممثلة في مسرح كبير بالتشهير في الطريق العام » ، والقى عليه محاضرة طويلة عن اصله وأصل آبائه واجداده » !

ناقد ثالث كتب مقالا عن رواية « قمر الزمان » انتقد فيه بشدة الســيدة منيرة المهدية . ثم « .. اضطر بعدها الى أن يحمل شومة في يده اينما سار ليدافع بها عن نفســه ــ رأيه ــ ضــد فتوات عماد الدين الذين أرسلتهم وراءه السيدة ليتفاهموا معه » .

ان السيدة منيرة تمثل وتغني ..

والاتجاه في الغناء كان متذبذبا . فبعد نهضـــة قصيرة في المسرح الغنائي مثلها سيد درويش .. بدأ الغنـــاء يبتعد عن التواشيح ولكنه يقترب من الخســلاعة . ان احد الشعراء قدم مرة قصـــيدة شعرية طويلة الى كامل الخلعي لكي يلحنها فصاح فيه الخلعي قائلا :

كيف يمكن تلحين ذلك ؟ هذا شريط ترمواي وليست قصـــيدة !

أما الاغاني المنتشرة فكانت تختلف .

مثلا .. الاغنية المشهورة التى الفها يونس القاضى وغناها عبد اللطيف البنا تقول : أرحى السنارة اللى فريحنا .. أحسن جيرانك تجرحنا !

هذه الاغنية تستطيع سماعها فى مقاهى القاهرة مثل : اللاوندية واسماء الكمسارية . أو ـ بالاسكندرية ـ فى مقهى شسبيان أو مقهى الباس .

اغنية اخرى تقول : مين فكو بابا مين فيكو ماما .. مش عارفة تينة من غير علامة !

اغنية ثالثة فى مقهى الانفرادو تقسول : اوعى تكلمنى بابا جاى ورايا ..

تغنيها عزيزة المصرية .

اغنية رابعة يطلبها « السميعة » تقول :

ماتخافش عليا انا واحسدة سجوريا
فى العشق يا انت واخسدة الكالوريا

واذا سرت خطوات أخرى فى شارع عماد الدين سوف تسمع اغنية الموسم :

ايه اللى جرى .. فى المندرة
شىء ما افهموش
انا كنت لسه صغيرة !

وكان الجمهور يعبر عن اعجابه بالطرابيش . ان قذف الطربوش هو اقوى وسائل التعبير عن الاعجاب عند جمهور ١٩٢٦ .

والطرابيش تملأ جميع مسارح القاهرة .

الطرابيش تملأ مسرح « الرينسانس » بشسارع فؤاد (أقيمت مكانه فيما بعد سينما ريفولى) .

وتملأ « تياترو ماجستيك » بشسارع عماد الدين ، حيث تعرض رواية « الطمبورة » .

وتملأ ايضا مسرح رمسيس ، الذى يعرض رواية « حانة مكسيم » وتياترو حديقة الازبكية حيث تعمل فرقة عكاشة .

ام كلثوم .. مع باقة زهر وقطة في شرفة منزلها .

ودار الطرب الجديدة ـ صالة بديعة مصابني ـ بشارع عماد الدين . اعلانات الصالة تقول ان السيدة بديعة قد « خصصت مقاعد للسيدات بعيدا عن الرجال .. حفظا لكرامتهن » !

وتياترو برنتانيا ، حيث يقدم حوق السيدة منيرة المهدية الرواية الجديدة « البريكول » وتلحين كمل اعبدى الخلعى . خارج التياترو تقول الاعلانات « تقوم بالدور المهم في الرواية السيدة منيرة المهدية سلطانة الطرب وكروانة مصر الوحيدة وبلبل وادي النيل » ! اعلانات اخرى تقول « الليلة تغنى السيدة منيرة المهدية . دكتوراه ممتازة في الغناء والطرب بين العالم الشرقى جميعه » !

في داخل المسرح تسمع منيرة المهدية وهى تغنى . عندما تغنى يقف خلفها « المدهجية » او « السنيدة » ، الذين لا ينطقون ولا يتحركون الا بقدر .. وفى الوقت الذى تريده « الصيتة » !

ومسرة المهدية بدات العمل فى صالة الالدرادو ، حيث كان الذهب يتدفق من المعدومالاعيان. وقد اصبحت بعد قليل تلقب بـ«سلطانة الطـــرب » ، حتى لقد كان يجتمع فى بيتهـا مجلس الوزراء .. واذا غضب منها احد رؤساء الوزارات .. كانت تصـالحه باغنية « تعالى يا شاطر نروح القنـــاطر » . ويصطلح رئيس الوزراء .. ويذهب الى القناطر !

ان هذا المستوى من الاغانى كان قد اضطر سيد درويش — قبل سنوات من وفاته — الى ان يجاريه عندما لحن وغنى : الامـــتيك فوق صدرك يضوى . و : بالنا يا انت يا واد يا مأطط !

وهذا المستوى من الخلاعة هو الذى اضطر سيد درويش ايضا ان يلحن منذ سنوات روايات كشكش بك التى كان نجيب الريحانى يقوم ببطولتها .

هب بالضبط يقول توفيق الحكيم فى كتابه « سجن العمر » كان الاقبال على كشكش بك يعادل الاقبال على الكباريهات . ولم يكن سر رواجه فى الحقيقة الا تلك الرقصات الجميـــلات الشقراوات الاجنبيات الوافدات علينا من الخـــارج عقب الحرب الاولى مثل « دينالسكا » ومثلاتها ممن قذف بهن الجوع من بلاد منهـــزمة كالنمسا والمانيا .. فجئن الى مصر المفتـــوحة يومئذ لكل من هب ودب . فملأن المسارح والحانات وقاعات الليل . وكان الشـــباب من الوارثين يقبلون على تلك المحال جميعا لصاحبة الفتيات اخـــر الليل . وكان الواحد منهم يحضر الرواية الواحـــدة للريحانى كل ليلة ، لاجل فى الرواية نفسها — التى سبق ان شـــهدها مرات — وكر من أجل سيقان الفتيات .

حسنا ..

هذه هى السنة التى قررت فيها ام كلثوم ان تستقر بالقاهرة . وهذا هو نوع من الجمهور الذى تشهده مسارح ومقاهر القاهرة فى سنة ١٩٢٦ .

هل تختار ام كلثوم هذا النوع جمهورا لهـــا ؟ هل تمشى له - ما تنافش عليا انا واحدة سجورياً ؟

هل تفعل ام كلثوم كذلك ؟

نعود الى مذكرات ام كلثوم ...

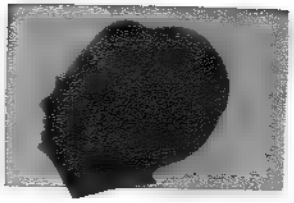

« ليس مهما ان اكون مطربه من الدرجة الثالثة ، المهم الا ابقى فى الدرجة الثالثـــــة » ! ..

ام كلثوم

من مذكرات أم كلثوم

صفعنى أبى ليرضى الجمهور !

كانت القاهرة عندما بدأنا نستقر فيها سنة ١٩٢٦ كالريف في كل شيء فيها نكتشفه لاول مرة . كل شيء فيها مختلف عما رأيناه من قبل . البيوت مختلفة . الشوارع مختلفة . السهرات مختلفة . الناس مختلفون . والجمهور مختلف .

في الريف كان صاحب الفرح يأتي الينا مباشرة ـ الى ابي ـ للاتفاق على الغناء .

ولكن في القاهرة لا بد من وجود متعهد الحفلات .

ان المتعهد هو الذي يتفق مع الجمهور من ناحية ، ثم هو الذي يتفق مع المطرب او المطربة من ناحية اخرى .. ويعد له مكان الغناء ويتولى الدعاية له بين الجمهور .

وفي البداية عانينا كثيرا من التعامل مع متعهدي الحفلات . كان ابي طيب القلب خالص النية في تعامله . وكان العمل في القاهرة يتطلب صفات مختلفة . ونظير ان منظر ابي كرجل ريفي .. ومظهري كفتاة صغيرة .. بالعقال والبالطو .. يظهر أن هذا كان يغري متعهدي الحفلات احيانا بالضحك علينا .

في البداية مثلا كان صديق احمد متعهد الحفلات يحضر في الصباح للاتفاق مع ابي على أجر الغناء . الاتفاق يقضي بأن يدفع لي سبعة جنيهات .

وعندما نذهب الى صالة الغناء في المساء .. فان صديق احمد كان يدخلنا الى المسرح لنجلس خلف الستارة نستعد . ويبدأ صديق احمد في الشكوى لابي قائلا : يا خسارة ! معيش جمهور ! شوف الصالة فاضية ازاي !!

وعندما يتطلع ابي الى الصالة من خلف الستار .. يجد ان الصالة خالية من الجمهور فعلا . لان صديق احمد تعمد ان يحضرنا قبل موعد الجمهور بساعة او بساعتين !

من اعظم ام كلثوم

والحل !!

كان الحل ينتهى دائما بنجاح المتعهد فى تخفيض الاجر المتفق عليه من قبل فى الصباح . فبدلا من سبعة جنيهات يصبح الاجر خمسة او اربعة جنيهات !

ويوافق ابى بحسن نية ، بينما المتعهد يتمتم بصوت مسموع ! ربنا يسهل بقى وماخسرش اكثر من كده !!

وعندما نبدأ فى الغناء بعد ساعة او ساعتين .. عندما يفتح الستار .. نفاجأ بأن الصالة قد اصبحت مزدحمة بالجمهور الذى لا يجد مكانا !

ونبحث عن المتعهد فنجده .. قص ملح ودأب !!

على ان هذه المشكلة بدأت تختفى عندما بدأ ابى شيئا فشيئا يكتسب الخبرة فى التعامل مع متعهدى الحفلات بحيث لا ننخدع بسهم بهذه السهولة .

بدأت المشاكل مع المتعهدين تختفى ، لتحل محلها مشاكل اخرى .. مع الجمهور نفسه !

كان الجمهور فى البداية ، يأتى لكى يسمع غناء . انه يأتى اولا لكى يسلى نفسه . يسهر وينبسط ويفرفش .. ويسكر !

واذا سمع مطربا .. فالغناء لابد ان يتمشى مع مقتضيات السهرة .. يعنى لزوم الفرفشة !

لهذا السبب فان موجة الطقاطيق الخفيفة ـ الخليعة غالبا ـ هى التى كانت رائجة فى تلك الايام !

لم يكن هذا لونتسا . كنت ما ازال اغنى المدائح النبوية .. والقصائد .. واصمم على التمسك بهما .

ولكن هذا التصميم خلق لى مشاكل كثيرة فى القاهرة .

اذكر اننى كنت فى احدى الليالى ـ سنة ١٩٢٦ ـ اغنى فى كازينو البوسفور .

ان كازينو البوسفور كان يقع فى ميدان المحطة ـ ميدان باب

الحديد حاليا ـ بالقاهرة ؛ وكان رسم الدخول للسهر في الكازينو خمسة قروش ـ

في تلك الليلة بدأت اغني ـ كالعادة ـ في الساعة العاشرة مساء ـ

ولم تكن هناك آلات تصاحبني في الغناء ، كان افراد التخت هم اربعة ، منهم ابي واخي خالد،وكنت ما ازال ارتدي العقال والبالطو الازرق .. واغني المدائح النبوية والقصائد ـ

وبدأت في تلك الليلة اغني : صبحان من ارسله رحمة لكل من يسمع او يبصر ـ

وبعد قليل بدأ افراد الجمهور يطلبون مني ان اتوقف عن الغناء وان اغني لهم الاغاني السائدة في تلك الفترة ـ اغاني خليعة ـ

ان الاغاني المنتشرة في تلك الفترة كانت في منتهى الخلاعة ؛ الى درجة ان اغنية « بعد العشا ـ يحلى الهزار والفرفشة » مثلا تعتبر اغنية غير خليعة بمقاييس تلك الايام ! وكان من المألوف ان يقوم اكثر من مطرب او مطربة بغناء نفس الاغنية ـ

المهم .. طلب مني هؤلاء الافراد من الجمهور ان اغني شيئا آخر بدلا من قصيدة ؛ صبحان من ارسله رحمة ـ

ورفضت ـ

استمررت في الغناء ؛ صبحان من ـ ـ

في هذه اللحظة بدأت تعلو اصوات نفس الافراد من الجمهور لكي ترغمني على الا استمر ـ

بعد قليل بدأوا يصفرون لمقاطعة غنائي ـ

ومرة اخرى استمررت في الغناء ـ

ولكن المسألة لم تقف عند هذا الحد . لقد وقف افراد منهم وهجموا على المسرح يريدون اغلاق الستار ؛ في هذه اللحظة فقط بدأت افقد اعصابي ـ

كانت المسألة هي ان القادم الى الكازينو في هذا المساء ـ يعلم مقدما من التي ستغني ، فالاعلان المعلق في الخارج يحمل اسمي ـ

وهو يعلم ايضا لون الغناء الذي سيسمعه .. فهو اللون الذي كنت اقدمه ـ

ويعلم أن الاغانى الخليعة التى يريدها لها اماكن اخرى تغنى فيها

فما معنى هذا الصغير ..!!

المهم .. اننى لحظتها ثرت عندما هجموا على المسرح يحاولون اغلاق الستار ..

فى الواقع اننى شتمت هؤلاء الافراد من الجمهور ..

ولم انتبه الا وابى يصفعنى بيده ! ..

كانت اول مرة اتلقى فيها مثل هذه الصفعة من ابى ، اول مرة يصفعنى فيها امام الجمهور ..

وبكيت ! ..

بكيت لاننى على حق .. وابى يعلم ذلك .

ولكن ابى كان على حق ايضا .. لقد كان اوسع منى ادراكا .

ان ابى ضربنى امام هؤلاء الافراد الثائرين من الجمهور .. لكى يرضيهم ! لكى يهدىء من ثورتهم ! لقد رأى الشر فى اعينهم وهم يهجمون على المسرح متجهين نحوى ..

وحتى ابى ان يحدث لى مكروه . خشى ان يؤذينى هؤلاء الافراد السكارى ، فتطوع بمعاقبتى عنهم . كما انه اراد ان يلقننى درسا فى الادب ! فمهما كانت الظروف ، لا يجوز لى ان اشتم واحدا من الجمهور . لا يجوز لى ان اتفوه بلفظ نابى واحد .. حتى ولو كان معى الحق فى ذلك ..

و .. ..

انسحبت من المسرح فى تلك الليلة .. أجر دموعى ! ..

◆◆◆

والواقع ان هذا النوع من الجمهور لم يكن يقتصر وجوده على القاهرة . كان هذا النوع موجودا فى كل مكان . معنى ذلك ان مقاومة تيار الاغانى الخليعة امر سهل ، ولا حتى امر ممكن دائما وربما كان جزءا كبيرا من المجهود الذى بذلته فى البداية .. موجها لمقاومة اغراء الهبوط الى المستوى السائد من الاغانى الخليعة ..

وفى البداية لم يكن يمر شهر — ولا حتى اسبوع — الا تواجهنى مشكلة بسبب عدم غنائى لهذا النوع من الاغانى .

بل ان تصميمى هذا كاد يكلفنى حياتى فى احدى المرات !

كنت اغنى فى احدى القرى ..

وبالتحديد كانت قرية تقع بجوار بلدة ميت العامل فى مركز ابجا بمحافظة الدقهلية .

مكان الغناء هو دوار العمدة . دوار واســـع . الجمهور يملأ الدوار . من هذا الجمهور وجوه اعرفها من قبـــلاً . فلقد كانت المرات العديدة التى غنيت فيها من قبلاً قد بدأت تشجع هـــذا اللون من الغناء الذى كنت اقدمه ، ولكن الى جانب جمهورنا هذا كان يوجد النوع الآخر من الجمهور . النوع المألوف .. الذى جاء ليشرب الخمر ويستمع الى أغانى « بعد العشا .. يعنى الهوان والفرفشة » ! كان هذا الجمهور يمثل اقلية بسيطة جدا فى الريف .. ولكنه كان موجودا على أى حال! ..

فى تلك الليلة بدأت اغنى قصيدة « سبحان من اوسله وحمة ـــ لكل من يسمع أو يبصر » ـــ

دقيقة واخرى واخرى ..

ثم وقف واحـــد من الجمهور يصيح : ايه الغم ده .. عايزين نفرفش ! ..

واستمررت فى الغناء ! ...

ولكن نفس الشخص عاد ليقف من جديد : عايزين نفرفش ـــ عايزين شوية مياعة .. شوية مواويل .. غنى لنا بالليل ياعين !

ولم التفت اليه . مازلت مستمرة فى الغناء ـــ

ولكنه استمر فى مقاطعته لى ..

وعندما حاول عدد آخر من الجمهور ان يسكتوه تكهرب الموقف !

لقد وقف الرجل المخمور وسط الدوار واخرج من جيبه مسدسا ولوح به فى الهواء مهددا ! ..

قال الرجل مهددا الجمهور بالمسدس ! اللى مش عاجبه يقلع بره ! ..

وفى لحظات كان الصمت يخيم على المكان كله . صمت له رنين !

ونظرت الى الدوار الواسع فوجدته قد اصبح خاويا .. لا احد على الكراسى ! الجمهور الذى كان يتزاحم منذ لحظة .. ذهب !

ويبدو ان هذا الرجل كان صاحب سلطة فى القرية دون ان ندرى .. لقد اكتشفنا فيما بعد انه ابن العمدة واحد من اصحاب النفوذ فى اى قرية ! ..

اللهم ـ صمم ابن العمدة بمسدسه على ان اغنى له ما يريد ..

وصممت على الا اغنى سوى ما اريد ..

وتوزعت نظرات ابى بين وجه ابن العمدة .. وبين مسدسه ـ وبينى ! ..

قال له ابى : معلهش يا ابنى .. هدى نفسك ! ..

ورد ابن العمدة : لازم تغنى ياليل يامين . لازم تعمل لنا شوية انبساط وفرفشة ! ..

فقال له ابى : فرفشة ايه يابنى بس وانت شايل لنا المسدس !

ـ هو كده ! ..

قال ابى : حاضر يا ابنى .. حتغنى .. حتغنى كل اللى انت عايزه ، بس هدى نفسك .. غنى له يابنتى .. امرنا لله !

وصممت على الا اغنى ! ..

لم يكن تصميمى عن شجاعة .. فالمسدس على بعد متر منى ..

ولكن تصميمى كان عن عناد .. وعن ايمان ..

وبدا المسدس يتململ فى يد الرجل وهو يقول بكلمات تلاعبت بها الخمر ! يعنى ما بتغنيش !!

ورد ابى بسرعة ! حتغنى يا ابنى .. لحسن عليها بس ـ صبرك بالله ! ..

و ـ ..

انقذتنا عناية الله ـ ..

ففى تلك اللحظة دخل الى الدوار واحد نعرفه . صاحب مزرعة مجاورة للقرية .. جاء فى هذه الليلة ليسمعنى بالصدفة ـ عندما علم فى طريق عودته اننى اغنى هذه الليلة فى تلك القرية .

ولم يحس ابن العمدة المخمور بالرجل .. الا بعد ان خطف منه المسدس واوسعه ضربا ! ..

واعود الى القاهرة ..

ان الجمهور المحمور كان اقليـة فى الريف . ولكنه كان اغلبية بحسب انها الف حساب فى القاهرة . والمسألة كالحلقة المفرغة.. لا ندرى من اين بدات ، هل العيب فى مستوى الاغانى .. ام فى انتشار نوع معين من الجمهور .

وعلى اى حال فلقد كان الدرس الذى خرجت به مبكرا هو الا اياس ، هو ان اصمم على نشر اللون الذى كنت اغنيه ، ولم يكن يدفعنى هذا الى التعصب لما اغنيه .. وانما تطوير ما اغنيه بحيث يكون مقبولا ، وبشرط الا اضحى بالمستوى الذى اؤمن به فى الغناء ..

شيئا فشيئا بدا حظى يتحول ..

فى الواقع ان رصيدى السابق من الشقاء والتعب فى الريف بدا يصبح ميزة كبرى انفرد بها ، فحتى تلك الفترة لم اكن قد اصبحت معروفة بشكل حاسم فى مدينة القـاهرة . كان رصيدى كله فى الريف . لقد غنيت فى مئات من القرى والكفور والنجـوع والمدن الصغيرة ، بحيث اصبح الجمهور الذى يعرفنى جمهورا آخر ، غير الذى تعرفه ليالى القاهرة ..

ان هذه الظاهرة سببت الحيرة لشركات تسجيل الاسطوانات.

ان اول اسطوانة سجلتها كانت اغنية « مالى فتنت بلحظك الفتاك » . اغنية لحنها لى احمد صبرى النجريدى .. وسجلتها شركة اسطوانات « صوت سيده » بالقـاهرة . ان الشركة سجلت لى هذه الاسطوانة وهى تقدر مقدما انها صفقة خاسرة . لهذا لم اتقاض من الشركة اكثر من ثمانيـة جنيهـات .. هى كل مستحقاتى عن حقوق تسجيل الاسطوانة .

لم توجّت الشركة بانها حققت فى الاسطوانة ارباحا ضخمة .. مع أن ثمن الاسطوانه كان عشرة قروش !

اكيف حدث ذلك ؟ انني لم اكن معروفة بعد لجمهور القاهرة .. فمن هو الجمهور الذى اشترى تلك الاسطوانة ؟

ان المسألة ببساطة هى انني اتميز عن مطربات القاهرة بالجمهور الذى يعرفنى فى الريف . وعندما يأتى واحد من هذا الجمهور الى القاهرة فمن الطبيعى انه سيشترى اسطوانة للمطربة التى سمعها ورآها .. وانه لم تكن هناك اذاعة بعد ، ولم تكن مطربات القاهرة المشهورات فى ذلك الوقت يذهبن الى الريف . لم يكن الاعجاب بصوتى انذ هو سبب رواج الاسطوانة ، ولكنه كان مجرد حب الاستطلاع ..

وشيئا فشيئا بدأ رصيدى يزداد من جمهور القاهرة .. وبدأت شركات الاسطوانات تضاعف أجرى عن كل اسطوانة .. ولكن المسألة لم تكن أبدا بمثل السهولة التى اكتب بها الان . كانت هناك منافسة ، وهى منافسة حادة غالبا .. ولم أكن اعرف بعد احدا من كتاب صحف القاهرة . ومع ذلك فان مواقف الصحف والمجلات فى هذه المنافسة كان يختلف ..

اذكر انه فى مايو سنة ١٩٢٦ نشرت احدى المجلات تعليقا يقول : « للسيدة منيرة المهدية انصار ، وللآنسة أم كلثوم انصار .. وكل من الطرفين يدعى ان صاحبته هى ذات الصوت الاجمل . ولكن ، من هو الحكم الذى يحكم بالأولوية لهذه او تلك ؟ هو الجمهور ولاشك .. والآن اسمع .. تدفع شركة بيضافون للسيدة منيرة المهدية ثريمين جنيها مقابل كل اسطوانة تملأها السيدة .. وتدفع شركة اسطوانات «صوت سيده» للآنسة أم كلثوم خمسين جنيها مقابل كل اسطوانة تملأها الآنسة ! .. ومعنى هذا ان اقبال الجمهور على شراء اسطوانات أم كلثوم أشد من اقباله على شراء اسطوانات السيدة منيرة .. ولهذا نجد اسطوانات الآنسة اغلى ثمنا من اسطوانات السيدة » ..

انتهت كلمات المجلة .. انها بلا شك تعطى صورة عن تلك الفترة من سنة ١٩٢٦ .

ولكن ..

لم يمض أسبوع واحد آخر الا وحدث تصرف غريب .. من نفس المجلة !

ان المنافسة العنيفة في سنة ١٩٢٦ كانت قد تبلورت بحيث تركزت في النهاية بين منيرة المهدية وفتحية احمد .. وبيني .

وقد ارادت المجلة المذكورة ـ هكذا قالت ـ ان تصل الى رأي قاطع في هذه المنافسة . قالت المجلة : «ثارت في الايام الاخيرة ضجة حول الغناء والمطربات .. ايهن اجمل صوتا وايهن اعمق فنا واعذب نغمة وأسمى روحا وأدق تصويرا .. الخ. فكتب كاتب في (اللاغ) في هذا الموضوع ، وقام ثان في (الاهرام) وثالث في (السياسة) .. وكان مدار كل هذه المقالات هو السيدة فتحية احمد والمقارنة بينها وبين الآنسة ام كلثوم والخروج من هذه المقارنة بتفضيل الاولى على الثانية .. وتعرض البعض للسيدة منيره المهدية ولم يحترم درجة الامتياز التي نالتها في مباراة الغناء المسرحي (احرزتها وزارة الاشغال) فقام ووضعها هي ايضا على المشرحة . اما سوى هؤلاء مثل السيدات نعيمة المصرية وتوحيدة وفاطمة سري وفاطمة قدري فلم يعرض لهن احد بكلمة . ولهذا رأينا ان نقوم باستفتاء حضرات القراء ، وأن نقصر الاستفتاء على هؤلاء المطربات الثلاث اللاتي يدور حولهن الاخذ والرد ، وهن السيدات ام كلثوم وفتحية احمد ومنيرة المهدية ..

« وموضوع الاستفتاء هو :
« اولا : من هي الاجمل صوتا بين هؤلاء المطربات الثلاث

« ثانيا : من هي التي يؤثر فيك صوتها اكثر من سواها ؟ و (ويؤثر فيك) معناها هنا (يشجيك) ..

« ثالثا : من هي الاكثر المامـا بفن الغناء ..

« رابعا : اذا فرضنا ان هؤلاء المطربات الثلاث كن يغنين في ليلة واحدة في اماكن مختلفة .. فأيهن تفضل أن تذهب لسماعها » .

هذا ماتشرته المجلة ..

وفي الاسبوع التالي مباشرة قامت بنشر النتيجة ..

كانت النتيجة ـ كما نشرتها المجلة ـ هي أن ترتيب الطربات هو :

أولا : فتحية احمد ..

ثانيا : منيرة المهدية ..

ثالثا : أم كلثوم !

ومهما كانت الدوافع وقتها وراء اخراج النتيجة بهذا الشكل ، الا اننى فى الواقع صدمت من سيطرة الصداقات الشخصية على الصحفيين المتصلين بالوسط الفنى .

لم اكن اختلط باحد الكتاب او الصحفيين . لم اكن اهتم الا بتطوير صوتى وغنائى . مازال هذا رايى الى اليوم . برغم الصعوبات التى خلقها هذا الاسلوب امامى ..

ولكن المهم اننى اعتبرت ان النتيجة التى نشرتها المجلة صحيحة .. فلمعتبرتنى المجلة مطربة من الدرجة الثالثة .. لا يهم . ولكن المهم هو الا ابقى فى الدرجة الثالثة !

ان مثل هذه الاشياء كان من الممكن ان تكون بالنسبة لى حافزا على اليأس ، بحيث اعود الى الريف من جديد .

وكان من الممكن أن تكون حافزا لى على بذل مزيد من الجهود ، بحيث ابقى واستمر واعمل ..

وهـذا ماحدث ..

اصبحت اعتبر ان المشاكل ليست صعوبات .. وانما هى تحديات .. المشاكل ليست اعذارا عن الكسل .. وانما هى مبررات للعمل .. وفعلا .

لم يمض وقت طويل قبل ان اقرأ اول مقال امين عنى كتبه صاحبه قبل أن يراني ..

لقد نشر المقال وقتها فى جريدة (السياسة) .. وكان كاتبه الشيخ مصطفى عبد الرازق .

هذا هو اول مقال صحفى اعتز به فى حياتى الفنية . ومازلت حتى اليوم اشعر نحوه بوفاء بالغ .

ولم تمض فترة اخرى حتى كنت قد بدأت فعلا التقى بحظى ..

لقد بدأ حظى يتحول مع اغنية « ان كنت اسامح وانسى الاسية »

هذه الاغنية اشترى الجمهور منها نصف مليون اسطوانة !

ولكن سعادتى بدأت تتضاعف بعد ذلك بعدة سنوات عندما كنت بالاسكندرية جالسة فى كازينو الشاطبى .. امام الكازينو كبارية ..

فى هذا المساء لم اصدق اذنى ! لقد سمعت مطربة تغنى فى الكباريه قصيدة ابا الزهراء !

ليلتها .. لم انم حتى الصباح !

لم انم من فرط سعادتى . لقد أصبح الجمهور مقتنعا بسماع « ابا الزهراء » قد جاوزت قدرى » .. حتى فى كباريه ! تطور لا يمكن تقديره فى رأيى بأى مبلغ من المال ! ..

« اضطررت الى الغنـــاء اربع ســـاعات .. دون ان يسمعنى احد غير مائتى كرسى .. كراسى لا يجلس عليهـا فرد واحـد .. كراسى سمعتنى فى صمت بليغ!»

(ام كلثوم)

من مذكرات ام كلثوم

أمى .. وأبى .. والشيخ أبو العلا!

كانت امى سيدة بسيطة جدا !

لم تكن تعرف القراءة او الكتابة .. لم تكن متعلمة . . ولكنها كانت مثالا للسيدة التى تعرف كيف تقوم بواجبها نحو زوجها ونحو اولادها ..

لهذا لم يتزوج ابى غيرها !

ولم تكن هذه عادة مألوفة فى الريف ، ولا حتى فى اسرتى نفسها .. كان لى ثلاثة اعمام تزوج كل منهم مرتين او ثلاثا ..

ولكن ابى كان يقدر فى امى حكمتها وبساطتها وتفانيها فى تربيتنا .

لقد تعلمت منها التواضع .

وتعلمت منها الصدق .

وتعلمت منها الايمان بالله ..

كنا نستيقظ فى الفجر على صوتها ـ مع ابى ـ هى تؤدى الصلاة .

ولم نرها فى مرة تختلف مع ابى بصوت مسموع .

ولم نسمعها تناديه بغير « ياشيخ ابراهيم »

وكانت امى تساعد ابى بكل ماتستطيع . بل ان ابى عجز مرة عن ان يجد نقودا تكفى لشراء « كيلة ذرة » .. مشكلة .. ولكن امى نهضت لتجمع كل مصاغها وتعطيه لابى حتى يشترى لنا الذرة فنجد ما نأكله .. و ـ يادوب .. كان ثمن المصاغ يكفى لشراء كيلة الذرة !

لم تكن امى تهتم بالنقود .. حتى عندما بدأنا نستقر فى القاهرة وندخر جزءا من دخلى .. كانت تقول : ان النقود تفسد !

وفى كل مرة كنت اسافر فيها مع ابى للغناء كانت تكرر له نفس

المحاضرة « .. والنبى ياشيخ ابراهيم تاخد بالك من البنت .. اوعى حد يقول لك هاتها نسلم عليها فى البيت وتوافق . اوعى تسيبها لوحدها . حلى عينك عليها . أولاد الحرام كتير » !

وعندما بدانا نستقر فى القاهرة لم تكن تنام الا بعد عودتى من العشاء فى الفجر ..

⊙❖⊙

وأمى كانت بسيطة فى فهمها لوسائل التربية كنا صغارا اشقياء ـ انا واختى واخى ـ بحيث لا يمر يوم دون ان نلعب بأدوات المنزل فنكسر بعضها احيانا ..

ولكن امى كانت تقول لنا : « .. اللى يكسر حاجة ويجى يقول لى ياخد السبعة » !

ان « السبعة » هى سبع كراملات !

وكانت تقول لنا : « اللى يسرق حاجة .. ربنا يسخط وشه يخليه وش حمار » !

⊙❖⊙

.. ولكنى فى مرة حاولت ان اسرق أمى !

لم تكن هى فى المنزل . منزلنا المتواضع بقرية « طماى الزهايرة » فى مركز السنبلاوين . ثم مر فى القرية رجل يبيع غزل البنات .

وتسابق اطفال القرية الى الرجل لشراء غزل البنات .

وراغت عينى .. اريد غزل البنات !

ودخلت الى المنزل .. ومددت يدى الى جيب احد أثواب أمى ، فوجدت فيه نصف فرنك .

أخذت نصف الفرنك ، وخرجت اجرى الى بائع غزل البنات ..

.. ثم توقفت عن الجرى فجأة ..

تحسست وجهى .. تذكرت ان الله سيحول وجهى الى وجه حمار كما كانت أمى تقول لنا !

وعدت الى المنزل ، ثم اعدت النصف فرنك الى مكانه .. وخرجت من جديد اتفرج على الاطفال وهم يشترون غزل البنات ..

ولكن منظر غرل البنات أعراقي من جديد بإعادة المحاولة .. فعدت الى المنزل .. لاجد امي قد عادت من الخارج ..

في هذه اللحظة لم أتنبه الا وانا اعترف لها بكل ماقعلت !

استمعت أمي الى اعتراقي بارتياح كبير وهي تقول : الحمد لله .

قالتها كما لو كانت قد انتفت وجهي فعلا من التحول الى وجه حمار .. !

ثم أعطتني هي النصف فرنك لاشتري منه غرل البنات !

وكانت امي تحب شهر رمضان جدا .. وطوال الشهر لم تكن تسمع سوى آيات القرآن والاحاديث النبوية ..

وعندما أصبح لنا منزلنا الخاص في القاهرة كانت ترفض أن تقوم « الشغالات » بخدمتنا ونحن على مائدة الافطار .. كانت تصر على أن نجلس جميعا ـ جميع في المنزل ـ لتناول الافطار معا ..

وكانت تربي أولاد أختي بنفس الطريقة .

لم تكن توافق على خروجهم لاستذكار دروسهم بعيدا عن البيت .. وطوال مذاكرتهم كانت تصر على أن تظل ساهرة لخدمتهم .

وكانت ترفض أن تغتاب أحدا ، أو تتكلم عن أحد بسوء ..

في الواقع انها كانت سيدة عظيمة .

فبفضلها هي تحولت طفولتنا من أيام شقية الى أيام سعيدة . من أيام فقيرة .. الى أيام غنية ..

ان طفولتي لم تختلف عن طفولة الكثيرين من أبناء بلدي . ان الطفولة قد تفترن في أذهان الكثيرين باللعب ، بالحنان ، بالمرح ، بالعروسة الحلاوة ، بالجنينة العيدية .

ولكنني عندما اتذكر طفولتي تقفز الى ذهني أشياء كثيرة : البرد المطر ، الفقر ، الطرحة السوداء ، الشاي الثقيل ، الحصير القريش ، الثروة التي كانت فرشا ، العظام التي كانت لحما ، الركوبة التي كانت حمارا ، الحنان الذي كان أبي ، الرحمة التي كانت أمي .

اتذكر ابي ـ رحمه الله ـ حينما كان يواجه مشكلته الوحيدة كل

من افلام ام كلثوم .. مع احمد سالم

شهر : كيف يوفق بين مرتبه الشهري ـ الذي كان مجـرد عشرين قرشا كما قلت من قبل ـ وبين اعباء اسرة كاملة اصغرها اخي خالد وانا . وعندما ادخلني ابي الكتاب ، كانت المشـكلة هي من اين ياتي بالقرش الصاغ الذي كان يجب ان يدفعه كل اسبوع لمقرئ الكتاب .

اتذكر هذا كله عندما اتذكر طفولتي . اتذكر اياما فقيره بسعادة، شقية بعض .

فمع تقدم سنوات طفولتي تركزت حياتي في ثلاثة اشياء .

لقد كانت الاسئلة الثـلاثه التي تشغلني في كل لحظـــة من تلك الايام هي:

اولا ـ هل اجد طعاما ؟

ثانيا ـ هل اجد ماوى ؟

ثالثا ـ هل .. اغني ؟

في تلك الايام ، كان كل شيء في حياتي يدور حـول تلك الاسـئلة الثلاثة . حياتي نفسها كانت حصيلة لتلك الاسئلة الثلاثة . عنـدما كنت اعمل ، آكل ، انام ، اقرا ، اسير ، اركب ، اشتري ، اسافر ، اسمع ، اعلم .. فان هذا كله كان يتم بهدف واحد : أن اغني بطريقة افضل . ان اقوم في وقت اقل . ان اقلل عواطفي لمستمعي بشـكل ارق ..

كانت هذه هي حياتي .. منذ اليوم الذي بدات اتعلم فيه الغنـاء وعمري خمس سنوات ، الى اليوم الذي بدات فيـه التقي باعجاب الجمهور ..

على انني وراء كل نجاح حققته ، كنت اتذكر دائما شخصا واحدا هو صاحب الفضل فيه .

هذا الشخص هو : ابي !

كان ابي رجلا فقير الثقافة .. معدم الثروة . ولكنه اعطاني اكبر ثروة . اعطاني حبانه . اعطاني اهتمامه . اعطـاني اصراره على ان انجح .. وان اتعب قبل ان انجح .

ان ابي علمني درسـا هاما . علمني ان النجـــاح ـ وليس ثمن النجاح ـ هو المهم .

ولقد تعلمت من ابى اشياء كثيرة .. غير مجرد الغناء !

كان ابى يتمسك دائما بأن يؤدى واجبه . فى الواقع ان ضميره كان فى حالة صحوة مستمرة . وبسبب يقظة ضميره هذه ، اضطررت مرة الى الغناء فى حفل عام .. بلا جمهور ! اضطررت الى الغناء اربع ساعات .. دون ان يسمعنى احد غير مائتى كرسى ! كراسى لايجلس عليها فرد واحد . كراسى ظلت تسمعنى لمدة اربع ساعات فى صمت بليغ !

حدث هذا فى سنواتى الفنانية المبكرة فى الريف .

لقد اتفق صاحب الفرح مع ابى على ان اذهب الى الغناء فى قريته بمركز السنبلاوين . واعطى لابى اجرى عن الغناء : خمسين قرشا

وفى الليلة المحددة ركبت الحمار سبع ساعات قبل أن اصل الى القرية .

وعندما دخلنا القرية وجدنا السرادق معدا ، والكلوبات مضاءة .. ولكن بلا جمهور !

لم يكن هناك شخص واحد .. ولا — حتى — صاحب الفرح !

لقد تصادف ان الجو فى تلك الليلة كان فى منتهى البرد . ليلة من ليالى شهر امشير ! . وفضل الناس الا يغادروا بيوتهم . « .. حيسمعوا مين يعنى ؟! صالع عبا الحى .. والا عبد اللطيف البنا » ؟!

وذهب ابى الى صاحب الفرح ليعيد اليه الخمسين قرشا .. .. ولكن صاحب الفرح رفض . قال لابى « .. يا سيدى كأنها زكاة » ! قالها وانصرف !

واسقط فى يدى ..

ماذا افعل ؟!

وكان رد ابى : لازم تغنى !

— اغنى لمين ؟!

— مش مهم .. لازم تخلص ضميرنا !

— صح .. ولكن معيش ناس .. مفيش ولا حتى واحد اغنى له

موريس شيفالييه .. عندما زار ام كلثوم في منزلها ..

ـ برضه مش مهم .. لازم نغنى ونؤدى واجبنا !
.. وفعلا !
وقفت اغنى فى هذا الحفل .. دون ان يسمعنى أحد !
ولكنها كانت ليلة ممتعة ! انها الليلة الوحيدة التى غنيت فيها بالريف .. دون أن تقاطع الحناقات غناءنا !

فبدلا من ان يكون محصول الليلة ثلاث ساعات خناق ونصف ساعة غناء ـ كما كانت العادة ـ أصبحت الليلة غناء فقط .. ولكن بلا جمهور !!

❁❁❁

وكان ابى بسيطا فى حرصه على اعطائى مظهر المطربة الكبيرة .. وانا غير مشهورة بعد !

فبعد سنوات من مطلع حياتى الغنائية .. استطعنا ان نستبدل بركوب الحمير ركوب القطارات .. فى سفرنا للغناء بالقرى والمدن الصغيرة .
ولكن كنا ما نزال نركب بالدرجة الثالثة فى القطار .

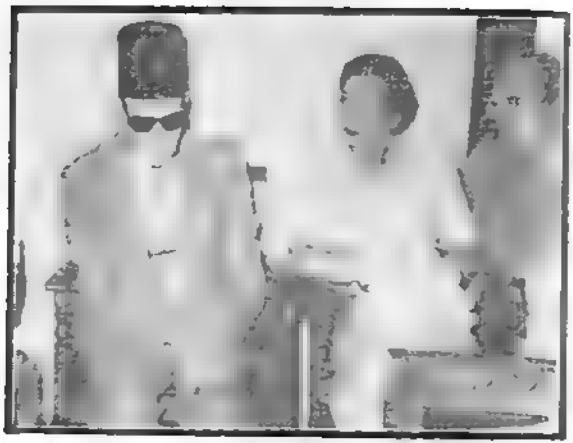

ام كلثوم بين الدكتور طه حسين ومحمد القصبجي .. في حفل خاص اقيم لتكريمها

وقبل أن يصل القطار الى البلدة التى سنقضى فيها بدقائق ، كان أبى يصر على أن نغير مكاننا فى الدرجة الثالثة .. وننزل الى المحطة من باب الدرجة الاولى .. حتى لا يرانا اصحاب الفرح خارجين من باب الدرجة الثالثة ، فيتصوروا اننى مطربة صغيرة !

●●●

وعندما جئنا الى القاهرة اول مرة اصر على ان نسكن فى فندق جوردون هاوس شارع عزاد . فنسدق عال . ويصر على أن نأكل طعامنا حاضرا من محل « سان جيمس » .. الذى كان من اعلى محلات القاهرة .

فى الواقع ان ابى كانت تدفعه فكرة رئيسية .. وهى الحرص على اعطائى كل مظاهر النجاح . وكان فى سبيل ذلك يسعى كل دخلنا ..

فعندما كنا نسافر الى الاسكندرية للصاء ـ بعد سنوات طويلة من عملى ـ كان اكبر مبلغ اتقاضاه فى ذلك الوقت هو خمسة عشر جنيها .

وفى اليوم السابق على السفر كان ابى ياخـــذنى الى محلات «هانو» بالاسكندرية لكى اشترى فساتين جديدة بكل الخمسةعشر جنيها .. ثم يدفع بعد ذلك اجر السفر الى الاسكندرية من جيبه !

وعندما انتقلنا من السكن فى شارع قوله بحى عابدين فى القاهرة .. اصر على أن نسكن فى شقة فاخرة بعمارة بهلر فى حى الزمالك . شقة تضم سبع حجرات وثلاثة حمامات ، ثم طباخ لاعداد الطعام. شقه غالية ايجارهاخمسة وعشرون جنيها ، وهو مبلغ مرتفع جدا فى ذلك الوقت ، ويمثل عبئا ماليا باهظا بالنسبة لنا .

وكان والدى واسع الافق بعيد النظر رغم تعليمه المحدود الذى اقتصر على تعلم القرآن وترتيله . وبعض التدريبـــات التى كان يخطرته بصر على أن اقوم بها .. تبينت فيما بعـــد انها تطبق فى مدارس الكونسرفاتوار الحديثة .

فمثـــلا ..

كان ابى يصر على ان اتناول اطعمة معينة ومشروبات معينة .. منها مثلا مشروب عبارة عن خليـــط من البيض النيىء وســـكر النبات واللبن الســـاخن .

وكان يصر على ان انام مبكرا ، واستيقظ مبكرا .. فى الايام التى لا يكون عندى فيها غناء .

وكان يصر على ان امارس يوميا بعض الالعاب الرياضية اللازمة لتوسيع الصدر واطالة الانفاس . لقد احضر لى مثـــلا « صاندو » بـــلك واحد فى الســـنة الاولى ثم سلكين فى السنة الثـــانية ثم ثلاثة .. وهكذا .

ولذلك فان كتفى الان اعرض من المقاس العـــادى لجسمى ..

وكان ابى لا يألو جهدا فى تعليمى ..

فبمجرد أن بدانا نستقر فى القاهرة ، وبدانا نقيم فى شارع قولة بـ عابدين أحضر لى أبو الاســـتاذ محمـــود رحمى لكى يعلمنى الـ ـى العود . كان رحمى من احسن المتخصصين فى العـــزف عى العود . وكان ابى يطلب منه أيضا ان يدربنى على غناء اكبر عدد

ممكن من النواشـــيح .. لا لكى اغنيها ، بل لـــكى تكون ارشيفا غنائيا احفظ به فى عقلى .

وكان محمود رحمى يظل يدربنى طوال النهار فى حضـــور ابى ، وكان ابى يدفع له ثلاثة جنيهات كل شـــهر ، وهو مبـــلغ مرتفع بمقاييس تلك الايام .

وكنت حتى تلك الفترة ما ازال اغنى وانا ارتدى العقال ! وكان ابى هو صاحب فكرة ارتدائى العقال عندما بدات اغنى فى الريف .

كان يرى اولا ان العقـــال زى جاد يناسب ما كنت اغنيـــه من القصائد والمدائح النبوية .

ويرى ثانيا ان منظر فتاة تغنى ليس منظـــرا مالوفا فى الريف . فالعقال والبالطو الاصفر هما حل وسط فى رايه .

ولكن هذه الاسباب لم تعد ضرورية عنـــدما بدات اســـتقر فى القاهرة ، لان منظر فتاة تغنى كان شيئا مالوفا فى القاهرة .

وابى كان اول من تحمس عندما فكرت فى التخلى عن الغناء مع التخت القديم واستبداله بالغناء على الآلات الموسيقية . فحتى سنة ١٩٢٦ ، لم تكن هناك موسيقى تصاحبنى فى الغناء. كان يقف معى على المسرح اربعة فقط فى زى المشايخ ، منهم ابى واخى خالد

وكانت هذه الطريقة لها معجبوها الذين يترايدون كل يوم .
.. ولكنى كنت اريد ان اتطور .

والاهم من ذلك اننى اريد ان اتطـــور بارادتى ، فضـــل ان اكون مرغمة على التطور .

وقلت لابى اننى افكر فى الغناء على الآلات الموسيقية .

وتحمس ابى . ولكنه اصر على نقطة هامة . قال انه لا يريد ان تكون المسالة تطورا والسلام . وانما يحب ان تكون هذا التطور قويا .. لا يريد ان يصاحبنى «تخت» موسيقى والسلام .. وانما يجب الا يكون هذا التخت مماثلا لتخت العوالم !

.. وفعلا ، دفع ابى اكبر ما يمكنه لكى يحقق فكرته .

لقد بدات اغنى بمصاحبة اوركسترا لاول مرة فى مساء الخميس

٧ اكتوبر سنة ١٩٢٦ . وكانت اول اوركسترا موسيقية اتفق معها ابى تضم الاساتذة محمد العقاد ، وهو من امهر عازفى القانون وقتها ، والاستاذ سامى الشوا على الكمان ، والاستاذ محمد القصبجى على العود .

وفى اول ليلة عزفت فيها مع الاوركسترا نجحت التجربة نجاحا هائلا . ودفع لى صديق افندى متعهد الليالى خمسين جنيها عن الليلة الاولى فقط ، ثم وقع معى عقدا بدفع خمسة وثلاثين جنيها عن الليلة بعد ذلك .

وكان ابى يدفع الكثير لتنفيذ اصراره على الاستعانة باحسن الموسيقيين .

كان يدفع لمحمد العقاد ثلاثة جنيهات ونصف جنيه عن الليلة الواحدة . ولسامى الشواحنصين ونصف جنيه ، ولمحمدالقصبجى جنيهان . فى الواقع ان الصحف اجمعت وقتها على تسمية هؤلاء الثلاثة بـ « اساطين الموسيقى الشرقية » .

فى الواقع ان هذه ـ وغيرها كثير ـ كانت تؤكد حقيقة كبيرة كنت المسها من ابى ، وهى اصراره الدائم على ان انجح دائما .. مهما تحملنا من تكاليف . اصراره على ان التطور لا يكفى ان يكون مجرد تطور .. بل من الضرورى ان يكون تطورا الى الاحسن .. والا فلا داعى له !

.. ولكنى مع هذا كنت اختلف مع ابى فى بعض الاحيان !

لقد عارضت ابى مرة واحدة . عارضته بشدة . ولكنها كانت المرة الوحيدة التى صفعنى فيها صفعة ساخنة !..

ذهبنا الى البنك العقارى ..

كان البنك يبيع ارضا بالمراد الصلنى وفاء لدين متعلق بهذه الارض . مساحة الارض تزيد على مائتى فدان .

وفى المراد قام محام من المنصورة بشراء مائة وثمانية افدنة من الارض المعروضة للبيع .

واراد ابى ان يشترى خمسين فدانا من هذا المحامى .

لسنوات طويلة ان تستجم

ولكن الارض كانت محملة بديون كثيرة ، وهى ديون تعطى الدائن حق تتبع الارض فى يد اى مالك لها .

لهذا رجوت ابى الا يشترى الخمسين فدانا الا بعد أن يسدد المحامى كل الديون المتعلقه بها ، لان الارض هى التى تضمن الوفاء بديونها ..

ولم يتمسك ابى بالشرط الذى طلبته منه .

ولكننى صممت على كتابة هذا الشرط فى العقد .

كانت حجتى بسيطة .

ان ابى شرب نفس المقلب مرتين من قبل .

فى مرة اشترى ارضا باسمى دون ان يشترط وفاء المالك الاصلى بالديون المتعلقة بالارض . لقد اكتفى بكلمة شرف من المالك .

ان المالك وعد ابى بأنه سيدفع الديون خلال عدة اشهر . واعتبر ابى ان هذه الكلمة كافية ، ثم طلب منى توقيع العقد ، فوقعت . وقبل أن تمر شهور قليلة ، فوجئنا بالحجز على الارض وفاء للديون التى لم يسددها المالك الاول . وخسرنا الارض ... والمال الذى دفعناه ثمنا للارض .

.. وتكررت هذه الحكاية مرة ثانية !

لذلك ، فعندما اراد ابى — للمرة الثالثة — ان يشترى ارضا ، صممت فى هذه المرة على اننى لن أوقع العقد الا اذا نص على مسئولية المالك الاصلى فى الوفاء بالديون .

ان الارض التى ضاعت منا مرتين من قبل كانت اقل من عشرة فدادين ..

ولكن الارض التى نشتريها هذه المرة هى خمسين فدانا . والاهم من ذلك اننى اشفقت من ان يضيع ما ادخرناه فى عشر سنوات مرة أخرى فى غمضة عين .

ان الثمن الذى كنا سندفعه فى المرة الثالثة هذه ، كان حصيلة عملى وعمل ابى طوال عشر سنوات كاملة حتى سنة ١٩٣٥ ..

حصيلة كفاح شاق وطويل استمر طوال السنوات المبكرة من عمل الغنى . سنوات اعتز بها . وبعد هذا المبلغ كان على ان انتظر عشر سنوات اخرى على الاقل حتى ادخر مبلغا آخر من جديد .

المهم ..

استمرت المناقشة تجرى بين ابى وبينى فى البنك العقارى .. وفى حضور عدد من الناس ، من بينهم مالك الارض الذى سمل محاميا فى المنصورة .

ولكن واحدا من الحاضرين مع المالك اثار اعصاب ابى على بدرجة كبيرة .

ولم انتبه الا وهو يصفعنى بقسوة .

ولم ابك هذه المرة . لقد تغلب عنادى على عواطفى .

وقلت لابى : اما الان .. اما بعد هذه الصفعة .. فانني لن اوقع العقد ابدا الا اذا نص على هذا الشرط ! الان .. لن اقبل كلمة شرف من المالك . لن اقبل سوى شرط مكتوب ..

.. وفعلا !

اضطر المالك فى النهاية الى توقيع العقد متضمنا الشرط الذى اصررت عليه .

و .. لم يفاتحنى ابى فى هذا الموضوع الا بعدها بسنة كاملة .

قال لى : لقد كان معك الحق يوم اخلفت معى بشان الارض . لقد ذهبت اليوم الى بنك مصر فاخبرنى بانه كان سيحجز على الارض وفاء لديونها القديمة .. مما اضطر المالك السابق الى ان يقوم بتسديد ديونه .. وأصبحت الارض ملكا لنا من تاريخ الوفاء بالديون . (●)

❁❁❁

ان امى وابى هما صاحبا الفضل الاول على فى حياتى .

اما الثالث ، فهو الشيخ ابو العلاء .

لقد تحدثت عن الشيخ ابو العلاء من قبل .

ويكفينى ان اقول انه جعلنى لاول مرة افهم معنى ما اقنيه .

(●) تبرعت ام كلثوم بكل ارباحها لافراد اسرتها .

عندما أقمت فى القاهرة لاول مرة كنت اسكن ـ مع والدى واخى خالد ـ فى فندق جوردون هاوس ، كان للفندق شرفة تطل على شارع فؤاد .

وكان الشيخ ابو العلاء يظل يغنى لى فى الشرفة ، ويدربنى على الغناء ، طوال الليل . لم يكن يتوقف الا فى الصباح .. عندما يبدأ الترام فى السير !

والحقيقة ان الشيخ ابو العلاء لم يحصل على ما يستحقه من الشهرة .

كان التيار السائد وقتها هو تيار الاغانى الخليعة . ولم يكن هذا لونه . كان ابو العلاء يصر على غناء الشعر العربى الاصيل .

واحيانا كان الجمهور يعامله بقسوة !

لقد انزله الجمهور مرة من على المسرح فى كازينو البوسفور ، لكى يستمع الى عبد اللطيف البنا بدلا منه !

ومع ذلك الشيخ ابو العلاء كان يتحمل هذه المصاعب .. ويضحك منها

وحتى عندما بدأ المرض يتردد عليه لم تختف الابتسامة من وجهه .

لم تختف ابتسامته .. حتى عندما عرف حقيقة مرضه .

ولم تختف ابتسامته .. حتى عندما اصيب بالشلل .

ولكن الموت كان اكبر منه . لقد هزمه فى النهاية ، وسحب منه تلك الابتسامة التى لن انساها .

مات الشيخ ابو العلاء فى مساء الاربعاء ٥ يناير سنة ١٩٢٧ .

لقد كان الشيخ ابو العلاء والدا ثانيا لى . ولن يقل وفائى واحسانى له ، عن وفائى لامى .. وابى ..

عند هذا الحد انتهت مذكرات ام كلثوم . من الفصل التالى تبدأ مذكرات اخرى . مذكرات «انا» أم كلثوم وليست منها ، مذكرات منى عنها ..

« .. التي كانت الأرض دنيـاها
والسـمـاء حياتهـا
والنجـوم مستقبلهـا »

حينما تغني أم كلثوم
أم كلثوم
التي يعرفها الناس!

مساء الخميس ..

كل شخص فى مدينة طنطا يبدو عليه خارجا من منزله .

« هذه ليلتنا الكبيرة » .. هكذا قال لى مدير الفندق قبل أن نغادره .

الناس بدأوا يتحركون فى الشوارع . واحد هنا . واحد هناك هناك كثير من الضحكات والتحيات حولنا . رجل يتمتم لزميل له فى صوت خفيض مشيرا نحونا : « .. يا ابنى دول من مصر . دول يطهر من سميعة أم كلثوم » !

لقد ذهبت الى طنطا لاشاهد هذا الحفل كمجرد نموذج لحفلات أم كلثوم . ولكنه فى الواقع لم يكن يختلف عن أى حفل آخر لها .. الا فى المكان !..

لا تكاد تمر دقيقة من الزمن ، أو مائة متر من السير ، دون أن تسمع اسم أم كلثوم على الألسن . أن مدينة طنطا بدت فى ثوب آخر وشكل آخر هذه الليلة . فرح . أن طنطا ـ من النظرة الاولى ـ قد أعدت نفسها لهذه المناسبة .

وفى هذا المساء بدأت طنطا تعبر عن عواطفها نحو أم كلثوم .. عواطف تدخرها طنطا لهذه المناسبة منذ زمن طويل مضى . هذا واضح من كل هذه الانوار . كل هذه الزينات . كل هؤلاء الناس.

مظاهر الفرح والزينة تقود كلها الى مكان واحد : الاستاد الرياضى . هذا هو أضخم مكان تملكه طنطا . لهذا اختارته المدينة مكانا لحفل أم كلثوم الليلة . سرادق .. فى الهواء الطلق .. مضىء .. منظم .. واسع . خمسة آلاف كرسى .

« هل رأى الحب سكارى .. مثلنا ، ؟

بعض الكراسى الامامية مازال خاليا . معظم الكراسى تم شغلها الضحكات تاتى من الخلف . ضحكات يقظة . الجميع يبدو عليهم انهم استعدوا مبكرا لهذه الليلة . والجميع يبدو عليهم أنهم ناموا عدة ساعات بعد ظهر اليوم استعدادا للسهر مع أم كلثوم

.. الجميع ظلوا يدربون انفسهم طوال النهار على الاستماع لام كلثوم طوال الليل !.

داخل السرادق يتزايد عدد الداخلين.. ويقل حجم الضوضاء.

داخل المسرح تجلس الفرقة الموسيقية خلف الستارة المعلقة . من وراء الستار تستطيع أن تسمع ذلك الالتحام المدهش للاصوات الانسانية . حول الفرقة تتصارع باقات الورد لتحتل مكانها فوق المسرح .

ومن ركن جانبى خلف الستارة تستطيع أن ترى الجمهور : ياه .. كل هذا العدد ؟ !

ان ويليام ليردكتب فى القرن السادس عشر يقول : «مادام العناء طيبا بهذا الشكل .. فأتمنى من كل الرجال أن يتعلموه » .. معه الحق !

ولكن نصف جمهور الليلة نساء . اننى أستطيع بصعوبة أن أسمع خلفى سيدة تقول لزميلتها التى رأيتها بالصدفة : انت فين يا حبيبتى ؟ ايه الفستان الحنان ده ؟ طبعا اشترتيه مخصوص علشان حفلة أم كلثوم . هىء .. هىء .. هىء ! !

◎❖◎

بعيدا عن المسرح ، والجمهور ، تستطيع ان ترى أم كلثوم وهى قادمة فى الطريق . لقد دخلت من الباب الخلفى للسرادق . باب سرى . باب يؤدى الى غرفتها الخاصة فى المسرح .

ومع ذلك فان عددا من الجمهور تسلل الى هناك فى انتظار أم كلثوم . انهم يرغبون فى مصافحة أم كلثوم ، أو حتى رؤيتها . أمنية .

خلال لحظات كان الجمهور قد تزاحم حول أم كلثوم . أين هى ؟ لا استطيع أن أراها .

ونظرا لان وجيه اباظه محافظ المدينة قد تنبأ بذلك مقدما ..

فقد بدا يرجو الجمهور ان يفسح الطريق . لحظة .. ولحظة .. ثم بدا الجمهور يستجيب للرجاء . بدا يفك الحزام من حول أم كلثوم . وبدأت أم كلثوم تخترق هذا الحصار الجماهيرى كما لو كان حزاما من الاسبلجيتى !

.. ونحن فى مساء الخميس .

ان أم كلثوم تقيم حفلاتها دائما يوم الخميس. لقد اصبح لديها كومة من ايام الخميس هذه . كومة تشكل رصيدها .. ويعرفها الناس من خلالها . ان عمرها كله هو مجموع ليالى الخميس التى غنتها . حصيلة فنها كله تنفقها ليلة الخميس . فى تلك الليلة يقول لسانها سرا «اغنى واغنى واغنى .. واورى الحلايق فنى» . من اجل هذه الليلة تعيش أم كلثوم . ان الموهبة هى فن تنمية الموهبة . وموهبة ام كلثوم تتركز فى ان كل شىء فى حياتها يعمل بهدف تنمية موهبتها التى تبديها فى غنائها ليلة الخميس .

وعندما بدأت ام كلثوم بدا صحفى اجنبى يستمع اليها من خلالى .

قال لى : لا ادرى سر هذه العلاقة بين الجمهور وبين أم كلثوم . انها لاتخترع . لاتبتكر . لا تخلق . انها ليست كاتبا ، ولا مؤلفا ، ولا ملحنا . انها مجرد سيدة تغنى . تغنى الحان الآخرين وكلمات الآخرين .

وقلت له : نعم . هى سيدة . وهى تغنى . ولكنها فنانة حينما تغنى . ساحرة عندما تكون فنانة . قمة عندما تكون ساحرة . متواضعة حينما تكون فى القمة . انسانة حينما تكون متواضعة .

أم كلثوم هى هذا كله . راقبها مثلا وهى تغنى ..

ان أم كلثوم حينما تغنى ، فانها لا تكون مجرد مطربة تقف امام ميكروفون فوق مسرح بين جمهور داخل صالة وسط مدينة .

انها تجعل الميكروفون يتراجع والمسرح يهتز والجمهور يقفز و ـ تسهر والبلد يرقص والفن يغنى . انها تصنع من صوتها وعواطفها ومشاعرها شبكة ضخمة تمسك بهم ـ تستعبدهم ـ بحيث يصبح كل شىء فيهم كالآخر . كل واحد مندمج فى الآخر .

نحن ، انت ، هم ، هي ، هو ، كل شيء يفقد شخصيته ويجد معنى جديدا وعواطف جديدة لمدة محدودة من الزمن .

ان المستمع يقبل معها على الحياة في بداية غنائها ـ رباعيات الخيام ـ حينما تنادي : « هبوا اعلاوا كاس الطلى قبل ان .... تملأ كاس العمر كف القدر » .

هكذا يطرب معها الجمهور . دعوة صريحة للاقبال على الحياة والتمسك بها . الجمهور مقتنع .

ومع ذلك ، لا تكاد تفوت ساعة ، حتى يقتنع الجمهور بشيء آخر . يقتنع بغنائها متوسلة الى الله : « ان لم اكن اخلصت في طاعتك ... فانني اطمع في رحمتك » .

لقد رغب الجمهور في الحياة منذ ساعة ، ثم طلب الرحمة منذ ساعة . رغب الجمهور في الخمر منذ لحظة ، ثم استغرب ذلك بعد لحظة . استغفر الله .

ولقد كان الجمهور مقتنعا بما غنته ام كلثوم في كل مرة . ان ام كلثوم غنت رباعيات الخيام . وهي في غنائها جسمت نصف الجنة ، ولكنها عادت بعد قليل تحذر بنصف الجحيم . النتيجة : خرج الجمهور بأذن مع بداية القصيدة ، واذن مع نهايتها . خرج بعين في الجنة ، وعين في النار . بقلب يرغب . وقلب ـ هو نفسه ـ يرجو المغفرة . سبحان التواب الرحيم .

وتستطيع ان تراقب الجمهور بطريقة اخرى . الجمهور يقفز في بداية عمر الخيام . الجمهور يصيح ، يهتف ، يصفق . وفي نهاية القصيدة فان الجمهور ما زال يصفق ، ولكن بعد ان جلس على الكراسي . انه يصفق ، انه يتحسر . انه يصفق بحسرة .

●●●

والجمهور بالنسبة لام كلثوم هو جزء من غنائها . ان دوره رئيسي جدا .. تماما كدور الملحن والمؤلف والعازف . غناء ام كلثوم هو احلى طرب يسمعه هذا الجمهور . وتصفيق الجمهور هو احلى اغنية تسمعها ام كلثوم . لو لم يوجد هذا الجمهور ما كانت ستوجد ام كلثوم . ولو لم توجد ام كلثوم ما كان سيوجد هذا الجمهور . في الواقع لايمكن تصور ام كلثوم بغير هذا الجمهور ، ولا هذا الجمهور بغير ام كلثوم . الشيء وظله . الصوت وصداه .

الشهيق والزفير . كلاهما يكمل الآخر . يفسر الآخر . جزء من الآخر .

لقد تخصص هذا الجمهور فى سماع ام كلثوم .. ولكن الحقيقة الاخرى هى ان ام كلثوم تخصصت هى أيضا فى « سماع » هذا الجمهور . ان ام كلثوم تحاول أن ترضى ذوق كل مستمع. بالطبع هى لا تفعل . لا تستطيع . لا يمكن . مستحيل . ومع ذلك فهى تحاول .

ان ام كلثوم ـ قبل ان تغنى بلحظات ـ تتطلع الى الجمهور من خلف الستار. نظرات سريعة فاحصة. مساء الخير أيها الجمهور !

كل صيحة من الجمهور لها معناها الخاص فى قاموس ام كلثوم. أنها تتعامل مع جمهورها بشفرة سرية . بكلمة . بنظرة . باشارة . بهمسة .

◎◈◎

وعندما تبدأ فى الغناء فانها تبدأ فى اطلاق بالونات اختبار غنائية . آه هنا .. وآه هناك . حذف هنا .. واضافة هناك .

وللحظات قليلة فان أم كلثوم ـ بينما تغنى ـ تتبادل الادوار مع الجمهور . هو يغنى ، وهى تستمع ! هو ـ أقصد ـ يصفق.. وهى تبتهج . هو يحيى ، وهى تتدلل . علاقة تقوم على الايقاع . ايقاع الحياة : خذ وهات . ايقاع البحر : مد وجزر . ايقاع السماء : نور وظلام. ايقاع الرقص : هى وهو. أنت فى هذا الحفل تشعر بنفس الايقاع : غناء من ام كلثوم .. وتصفيق من الجمهور. خذ وهات . خذ غناء .. وهات سعادة .

فى هذه اللحظات .. تجد أن عينى أم كلثوم واذنيها متفرغة تماما لسماع الجمهور . انه يهلل .. هى تتوقف . انه يطرب .. هى تستمع . انه يطلب التكرار .. هى تعيد . انه يلح .. هى تعيد مرة أخرى . انه يتذوق .. انه .. انه يصفق لام كلثوم .

مرة اخرى تستمع ام كلثوم الى التصفيق . انها هنا تحاول أن تصبح كالمكتشف : كل شىء امامها له معنى ورمز . تصبح كقبطان سفينة : يستدير دائما ليكون مع الريح . تصبح كجهاز سيسموجراف : كل هزة طرب تسجلها . تصبح ككيميائى ! اذا اضفنا كذا لكذا .. تكون النتيجة استمتاع الجمهور . تصبح كالاطباء الصينيين القدامى : تعرف كيف تقيس كل نبضة قلب .

ان أم كلثوم بالنسبة لهذا الجمهور هى تاريخ . انهـا تاريخ أسلوب كامل فى الموسيقى والغناء والطرب. تاريخ ينتظر أم كلثوم حتى يطوى صفحاته . حتى ينصرف . فالغنـاء الفردى ـ بهذا الشكل .. بهذا الاسلوب .. بهذه الطريقة ـ والطرب الغنائى .. بهذه الآلات ، بهذا التكرار .. كل هذا كان من المفروض ان ينتهى منذ سنوات طويلة مضت . ولكن أم كلثـوم اضافت ملحقا لهذا الفصـل المنتهى فى تاريخ الموسـيقى الشرقيه . أم كلثوم أعادت الشباب للموسيقى الشرقية . هى نفسها دواء للشباب . جرعة .. هى نفسها اطالت انفاس هذا النوع من الغناء بعـد أن تقطعت انفاسه منذ زمن طويل .

وأم كلثوم اغانيهـا طويلة غنائيـا . طويلة .. مستمرة .. مرتفعة . انها أيضا تجد ان الجمهور يطلب منها ما لا يقـبله من غيرها . استثناء . ان الكلمات التى يقرأها النـاس فى دقيقة ، ويغنيها المطربون فى عشر دقائق .. تغنيها أم كلثوم فى ساعتين . المقطع الواحد تعيـده مرة ومرة و .. ثمـانى مرات ! فعلا ثمـانى مرات ، كما حدث فى اغنية « انت عمـرى » . وفى كل مرة يزيد انفعال الجمهور ولا يتناقص . انفعال لا يتناقص ، ولا يتجمد ، ولكنه يتضاعف .

وهذا الجمهور ينقل انفعاله واعجابه بأم كلثـوم من جيل الى جيل . وراثة . خذ مثلا ما كتبه جمال الدين حافظ عوض سنة ١٩٢٦ يقول « كانت الآنسة أم كلثوم ، وما زالت الى اليوم ، موضع اعجاب الناس من الغانين والموسيقيين واصحاب الآذان السليمة. وكانت لاتحيى ليلة تنشد فيها الا ويمتلىء المكان ويغص بالحضور. وذاع اسمها وانتشر صيتها وتهافت الامراء والاعيان على الاستمتاع بصوتها المطرب فى حفلاتهم الخاصة » .

ولو حذفت كلمة «كانت» مما كتبه جمال الدين حافظ سنة ١٩٢٦ فسوف يظل الوصف صادقا اليـوم . ما زال الجمهـور هو هو ، بعد أن اصبح اكبر . ما زال الاعجـاب هو هو ، ولكن اضخم . ما زال الانفعال هو هو ، ولكن اقوى .

استمع اليها مثلا فى اى حفل عام وهى تغنى . وراقب الجمهـور ايضا وكيف ينفعل .

انها تغنى : « فات الميعاد .. وقلبنا بعاد » . خسارة . انهـا خسارة عاطفية شخصية لكل واحد من المستمعين .

اذا عدت حلقـا راقبها وهى تغنى . « **انا لن اعود اليك .. مهما استرحمت دقات قلبى** » . حرام !

او وهى تمنى « **ما بين بعدك ، وشوقى اليك .. وبين قربك ، وخوفى عليك .. دليلى احتار ، وحيرنى** » . مشكلة . مشكلة عاطفية شخصية يحس بها كل مستمع من هذا الجمهور .

واذا تقدمنا الى الامام مستمعين اليها تغنى كلمات ابراهيم ناجى

يا فؤادى لا تسل اين الهوى كان صرحا من خيال فهوى
اســـقنى واشرب على اطلاله وارو عنى ظالما الدمع روى

هكذا تبدأ ام كلثوم فى قصيدة الاطلال . ولكنها ما تكاد تصل الى آخر خمس كلمات حتى يصبح كل شىء حولها اطلالا . اطلال غناء ، اطلال حب ، اطلال جمهور . ام كلثوم نفسها تصبح احيانا اطلالا ! لقد رآها احمد رامى مرة وهى واحد حقنة طسة قبل الغناء لكى تساعدها على الوقوف ساعة وهى تشكو الها .

كل شىء يصبح اطلالا ، ما عدا عواطف الجمهور نحو ام كلثوم . ان الجمهور يعجب بها كما لم يعجب بها من قبل . وهى تغنى له كما لم تغن من قبل .

والجمهور يقبل من ام كلثوم ما لا يقبله من غيرها . فى الواقع هى تحس ان لديها توكيلا على بياض من جمهورها لكى تختار له ، وتعنى له ما تختاره ، وتغير فيما تغنيه .

الجمهور يسلم مثلا ان قصيدة ابراهيم ناجى تبدأ هكذا : « يا فؤادى **رحم الله** الهوى » . ولكنه يغفر لام كلثوم ان تغنيها : يا فؤادى **لا تسل** اين الهوى .

وفى قصيدة رامى على القاع لاحمد شوقى يقول الشاعر « قرب **منتصت** والقلب فى صمم » . ولكنه يغفـر لام كلثوم أن تغنيها : « قرب **مستمع** والقلب فى صمم » .

الجمهور يغفر لهـا اذن ما لا يمكن غفرانه . انه جمهور استثنائى . جمهور حساس لكل كلمة من ام كلثوم . كل همسة .

كل آه . قليل من النغم طرب . قليل من الآهات متعة .

وحينما تغنى ام كلثوم فكل شيء يصبح في خدمة غنائها . قدماها تتحركان ـ خطوتين الى الامام وخطوة الى الخلف . يداها تساعدانها في الغناء : برقة كما في اغنية « رق الحبيب » . بعنف كما في نشيد « فدائيون » . بكبرياء في اغنية « فات الميعاد » . بتفاؤل في اغنية « انت عمري » . بحسرة في قصيدة « الاطلال » . بابتهال في قصيدة « ولد الهدى » . بمنديل في جميع الاحوال .

ان وجهها يعبر بانفعال . يداها تحتضنان الهواء . عيناها تؤكدان المعنى . اذناها تجمعان الحصيلة .

الحصيلة هي أن كل مستمع يحس ان ام كلثوم تغنى له شخصيا . تغنى له على انفراد .. ولكن على مسمع من الملايين .

الحصيلة انها عندما تغنى فان الجمهور يحس ان الحياة هي موت بغير غناء . بغير طرب . بغير حب .

الحصيلة ان ام كلثوم قامت بعملية تأميم لعاطفة الحب . اصبح الحب ملكية عامة . حقا للجميع .

وانت لا تستطيع ان تسأل ام كلثوم . ما هو الحب ؟ اذن .. اسأل من يصغي من هو الله ؟ اسأل من يعيش ما هي الحياة ؟ اسأل من يتنفس : ما هو الهواء ؟ !

الحب الذي يعبر عنه اغاني ام كلثوم هو حب من نوع خاص . حب يجعل النهار أطول والليل اقصر والقمر ينير اكثر والنجوم تصبح اجمل واكبر والشجر قبل الربيع يراه احمر .

ان الفيلسوف الاغريقي افلاطون كان يرى ان الحب ـ من بين جميع آلهة الاغريق ـ هو احسن صديق للرجال . احسن مساعد لهم . احسن شاف لامراضهم .

وهذا المفهوم نفسه تجده في اغاني ام كلثوم . حب للحب . تماما كالفن للفن . كالحياة للحياة . ان الحب ـ في اغانيها ـ يتألم بلذة ، يضحي في صمت ، يتعذب في سعادة ، يقاسي من بعيد ، انه حب لا ينتظر تعويضا عن عذابه . لا يتوقع مكافأة . الحب مستمر . شيء لا مفر منه . حكم ابدي . قدر . انه عاطفة يبحث عنها العاشقين مع علمهما مقدما بانهما سيتألمان . ولكنهما ـ في

امام مسرح الاوليمبيا في باريس .. تزاحم الجمهور على باب الدخول ليستمع الى ام كلثوم ..

النهاية – يقولان مع ايمرسون : « كل المتع الاخرى لا تستحق آلامها .. الا الحب » !

وام كلثوم – في تعبيرها غنائيا عن هذا المفهوم من الحب – انما تعبر عن مفهوم اساسي طلبه الانسان من الحب زمنا طويلا . فالانسان – منذ البداية – يعيش بالحب . وفي الحضارات القديمة جعل الانسان للحب الها . فالحب هو الاقدم بين كل الآلهة . موجود قبل كل الآلهة . هكذا تصور الاغريق مثلا . ان كيوبيد عندهم له صفات اربع : انه طفل دائما . اعمى دائما . عار دائما . يرمي سهامه دائما .

والحب في اغاني ام كلثوم لا يعبر عن موقف غالبا . انه يعبر عن حالة نفسية .

ان الهوى في اغانيها بلا مواعيد . وعندما يأتي فانه : غلاب . هجره مرار وعذاب . يومه بسنة . كل شيء فيه بقضاء .
والحبيب في اغانيها له : ابطاء المذل المنعم .. وتجني القادر

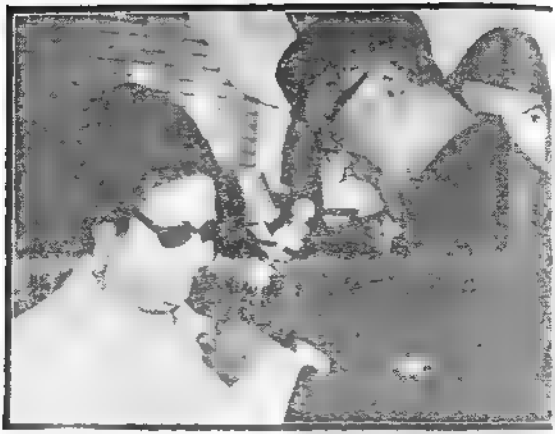

ارفع وسام باكستاني لام كلثوم .. في حفل اقامه لها سفير باكستان بالقاهرة من اجل هذه المناسبة ..

المتحكم . يحرمها من رضاه . يشجيه انينها .

انها تهجره حتى تنسى هواه وتودع قلبه القاسي . ولكنها تكتشف انها تفكر فيه وهي ناسية !

انها تناديه على مشهد من « .. الليل وسماه ونجومه وقمره وسهره » .

انه عمرها . انه حبيب الامس .. وحبيب اليوم .. وحبيب غدا . حبيب لكل العصور .

انه يغمض عينيه حتى يراها . يوحشها وهي أمام عينيه .

وحبها له فيه « وصال ، ودلال ، ورضاء ، وخصام . من ده وده » .

و ـ الحب كده ..

ازاي كده ..؟

أهو ده اللي جرى !

انها اذن صورة تجسد ايمان الحب : محير دائما ، مؤلم دائما ، ممتع دائما . انه حكم على الجميع . ضرورى للجميع . انه حب للجميع ! انه حب لا يعبر عن الواقع كصورة فوتوغرافية . انه يجمع الواقع كلوحة زيتية . ليس موقفا .. ولكنه حالة . ليس حقيقة .. انه خيال .

ولكن الحب فى اغانى ام كلثوم لا ينفرد بهذا الوضع الخاص . وضع استثنائى . ان كلمات الحب ايضا لها وضع استثنائى .

لقد سمعت مرة رئيس وزراء ولاية بماليزيا يقول لام كلثوم : « اننا نتعلم اللغة العربية من خلال اغانيك » !

فى الواقع ان ام كلثوم تصد الحياة الى كلمات كثيرة فى اللغة العربية هجرناها منذ مدة طويلة . انها تقوم بعملية تلميع لكلمات غلاها صدأ كثير ، فتصبح براقة ناصعة .. ومفهومة ! انها تقوم فى الواقع بالتوسط بيننا وبين اللغة العربية الفصحى . وساطة مقبولة من الجانبين .

خذ مثلا هذا البيت من قصيدة احمد شوقى (سلوا كؤوس الطلا)

بانت على الروض تسقينى بصافية
لا للسلاف ولا للورد رياها

او ـ هذا البيت :

حمامة الايك من بالشجو طارحها
ومن وراء الدجى بالشوق ناجاها

ان اى صحيفة لو نشرت هذه الابيات الان لاحتاجت الى توزيع قاموس معها لشرحها . قاموس تقول فيه ان « الايك » هو نوع من الشجر . وان « الدجى » معناها الليل . و « الشجو » هو الهوى

لن تجد هذه الكلمات اليوم فى كتاب ، او مجلة ، او صحيفة ، ولا حتى فى مؤلف جامعى . نادر .

وسحر ام كلثوم يتركز اولا فى شخصيتها . وثانيا فى صوتها . صوت ابعاده من ٦٠ الى ١٦ الف ذبذبة فى الثانية . بينما اقوى صوت بلغها يصل الى ١٠ الاف ذبذبة فى الثانية فقط . حقيقة علمية

هذا الصوت هو الذى عطل المرور فى حى شبرا بالقاهرة ساعتين

دموع على مسرح الاوليمبيا في باريس دموع لم يرها احد ..

عندما أذيعت اغنية « أنت عمرى » سنة ١٩٦٤ . حتى شبرا يسكنه مليونان من السكان .

هذا هو الصوت الذى هتفت له الجماهير فى تونس قائلة : احيكا أم كلثوم .. وعبرت عنه فيروز عندما ظلت تردد لها : الله يخلى اياك . ويسمونه فى باكستان : ممتازة الامتياز . واستقبلوا صاحبته فى السودان والمغرب والكويت استقبال رؤساء الدول !

هذا هو الصوت الذى كتبت عن صاحبته مجلة « تايم » الامريكية تقول : « ان اسطورة أم كلثوم تكبر وتستمر منذ ٣٢ عاما لانها اشهر وأقوى شخصية فنية فى الوطن العربى . وليست هناك اية علامة على ان كوكب الشرق تتأثر بالزمن ، لان العرب يؤمنون بانه يزيدها قوة ويضيف الى صوتها غنى وصفاء . وفى الشرق الاوسط هناك شيئان لا يتغيران ولا ينال منهما الزمن .. أم كلثوم والهرم » .

اما جريدة اوبزرفر البريطانية فتقول : « ان أم كلثوم هى نجمة الغناء العربى التى تجمع كل العرب حول اجهزة الراديو فى الخميس الاول من كل شهر خلال موسمها ابتداء من الخريف حتى مطلع الصيف . بينما المحظوظون الذين يستمعون اليها مباشرة فى القاعة يرتفع صوتها فى حنان ويتماوج مع المشاعر ويعبر عنها . ان أم كلثوم تعتبر مؤسسة وطنية راسخة تماما كالهرم الاكبر » .

وقالت « لوماتينيه » بعد حفلها فى باريس : انها فنانة تملك سلطانا مدهشا تؤثر به على الجماهير .

وقالت « الاسوشيتدبرس » : لقد شهد الشرق الاوسط ثورات وانقلابات ، وطرد ملوكا ، وظهر رجال اقوياء ولكن شعبية أم كلثوم بقيت كما هى منذ اكثر من نصف قرن .. فهى ملكة الغناء العربى بلا منازع .

اما جريدة « فرانس سوار » فتكرر : ان شهرة أم كلثوم فاقت شهرة اعظم المطربين فى العالم الذين استمع اليهم الفرنسيون على مسرح الاوليمبيا . بل انها اصبحت اشهر من جان دارك وتفوقت على أديث بياف ومارينا كالاس . ان شهرة أم كلثوم فى المنطقة العربية لا ترتفع اليها ولا تعادلها شهرة اى نجمة للغناء فى هذا الجزء من العالم .

عندما كنتي أم كلثوم : [illegible]

هذا الجزء من العالم ؟

نعم . هذا ما قالته الصحيفة الفرنسية .

ان المنطقة كلها من المحيط الى الخليج هي جزء واحد عندما تغنى ام كلثوم . سقطت الحواجز . ذابت الحدود . اتحدت الآذان داخل عشرة ملايين كيلو متر مربع . هذه هي النقطة . ان صوت ام كلثوم اقام أول سوق عربية مشتركة . سوق في حال غير الحال ليلة تغنى ام كلثوم . كل الاذاعات تنقل صوتها . كل المستمعين يعطونها آذانهم . القديم والجديد ، الحكام والرعايا ، الوزير والفقير ، راكب الجمل وراكب السيارة ساكن القصر وساكن الكوخ ، مشاهد التليفزيون ومستمع الراديو . ان غناء ام كلثوم موجود حيث توجد كل نسمة هواء في هذه المنطقة . لقد تركت ام كلثوم بصماتها على الهواء الذي تتنفسه هذه الامة . الحياة غير الحياة عندما تغنى ، العواطف غير العواطف ، الناس غير الناس .

« هبلت الناس يا ام كلثوم » .

هكذا قالت لها احدى سيدات المجتمع معبرة عن اندفاع الجماهير لاستقبال ام كلثوم وهي تغنى في تونس . هكذا قال ايضا الصحفي الدانمركي دينيس دوبرلي عندما شاهدها تغنى في ليبيا . لم يكن يفهم ما تغنيه ، ولكنه كان يسمع .. كان يرى .

◎❖◎

« الا ترى » ؟ هكذا يسألني جاري في حفل ام كلثوم بطنطا ارى ماذا ؟.. «ترى ثومة» ! طبعا ارى . طبعا اسمع . اسمعك وانت تهتف لها « تاني يا ثومة » ! وارى زوجتك وهي تنظر الى ام كلثوم بالنظارة المعظمة . صورة تجد مثلها دائما في جميع حفلات ام كلثوم وارى الجميع في حالة فرح . وعندما رغردت واحدة من الحاضرات انفجر الجميع ضاحكين ضحكة رجل واحد !

طبعا اسمع وارى هذا كله . ارى خلفي زوجا ، وامامي عاشقا اما انا فمنطقة محايدة ! انا محاط بساندويتش من الازواج والعشاق لقد جاء الزوج بزوجته في يده وذكريات في عقله ودمعة في عينه ومنديل في يده . زوج مخلص .

وارى العاشق بحبيبة في ذراعه .

••• « الله يخلق ايلا » • كلمات قالتها فيروز لام كلثوم فى بيروت ، ثم قبله على الخدين ••

غناء أم كلثوم هو ـ بالنسبة للروح ـ محاولة لتجميل الماضى ، وبالنسبة للعاشق محاولة لاكتشاف المستقبل .

فالحب عند الاول ماض انتهى بدمعة . وعند الثانى حاضر يتحرك باتساعة .

لم يعد الماضى بالنسبة للاول ذكرى انتهت منذ سنة ، ولا منذ خمس دقائق . الماضى أصبح موجودا الان . الماضى أصبح حياة . الماضى تحكى عنه أم كلثوم . والله زمان .. يا حب !

والمستقبل بالنسبة للعاشق لم يعد شيئا يطويه الغيب . ولا هو شىء يحذره منه الاصدقاء . المستقبل أصبح موجودا الان . يتحرك على المسرح .. يتدلل فى الميكروفون . المستقبل أصبح هذا الذى تكشفه أم كلثوم بغنائها . المستقبل أصبح كل هذا الحب .. هذا الدلال .. هذا الالم .. هذا السحر .. هذه المتعة .

والزوج معه طفلة . طفلة فى الثانية عشرة على ما يبدو . انهـا تستمع أيضا الى اغنية الحب التى تغنيها أم كلثوم . تستمع بمتعة وشغف لقصة حب ترويها أم كلثوم . تستمع اليهـا كما لو كانت تنظر من ثقب البـاب لترى ماذا يفعل الاخرون عندمـا يحبون ! اصبرى قليلا يا عزيزتى الصغيرة !

اننا نقول فى المسرح ان هاملت ـ بطل شيكسبير ـ هو رمز للشك وان « عطيل » ـ بطل شيكسبير أيضا ـ هو رمز للغيرة .

ولقد أصبحت أم كلثوم رمـــزا للحب . اصبحت كذلك حتى بالنسبة للذين لم يجربوا الحب بعد . حتى بالنسبة للذين يعتبرون الحب ذنبا واثما . حتى هؤلاء يستمعون اليها كما لو كانوا يقومون برحلة الى عالم الذنوب دون أن يرتكبوا ذنبا . يسبحون فى البحر دون أن تبتل ملابسهم .

وعندما انتهت أم كلثوم من غنائها بدا الجمهور ـ بصـــعوبة ـ يغادر كراسيه . وبدأت الـــساعات فى أبدى الجمهور تعـــود الى أدوارها ، بعد أن توقفت عقاربها أربع ساعات حتى تستمتع

بدأ الجمهور يعود الى منازله .. « انتهى الليـــل وسماه .. ونجومه .. وشعره .. وسهره » ، لم يعد هناك سوى « انت .. وانا » كل الان فى الحب سواء . كلنا كنا فى ليلة من الف ليلة .

من الان فصاعدا لى يكون الحب اثما . من الان فصاعدا لا حطيئة لا خجل ، لا خوف ، لا انتظار ، لا فراق ، لا الم من الفراق .

لقد تحققت السعادة . اصبح لنا قلب جديد وعواطف جـديدة . الجمهور الى منازله اثنين اثنين .

عد بالخطوة البطيئة !

« كل منا يبحث فى السعادة عن
الجـــزء الذى يهمـــــه ... »

ام كلثوم

أم كلثوم .. فى البيت

أم كلثوم ست بيت فاشلة جدا !

انها مثلا لاتجيد الطبخ ! فى الواقع انها لم تحاول مرة ان تطبخ ولا مرة ! . انها لو حاولت فالنتيجه معروفة مقدما !

لهذا فان أم كلثوم لا تتدخل فى أعمال منزلها . لديهـا من يقوم بذلك ..

ولكنها تتدخل فى أشياء أخرى . تنسيق الغرف مثـلا . المكان الذى تعلق فيه اللوحات الغنية مثل آخر . لوحة نحاسية للمدراء تحدها فى المدخل . لوحة زنجية للفنان صلاح طاهر فى الصـالون . لوحه اخرى تمثل الفلاحة المصرية فى الغرفه الاولى .. وهـكذا .

وروح أم كلثوم له ذوقه فى المنزل أيضا . ان مهنته ـ كطبيـب ـ تحدد ملامح ذوقه : الدقة ، النظام ، الترتيب .

ولهذا ، فبينما يختلف الدكتور حسن الحفناوى عن زوجته أم كلثوم فى مواعيد وأسلوب العمل والعادات المنزلية .. فانهما يتفقان فى شىء آخر : الذوق الفنى .

والواقع ان اتفاق الذوق الفنى كان أول نقطة اتفق فيها الدكتور حسن الحفناوى وزوجته . هذا الاتفاق هو الذى أدى الى زواجهما فى سنة ١٩٥٥ .

كان الدكتور حسن من أبرز أطبائى الامراض الجلدية (الان أستاذ فى طب عين شمس) وعندما يصبح الطبيب موهوبا . فغالبا ماتمتد موهبته الى دائرة الادب والفن . الدكتور نجيب محفـوظ طبيب أمراض النساء مثـل ذلك . الدكتور محمد كامل حسين طبيب أمراض العظام مثل ثان . الدكتور حسن الحفناوى مثـل ثالث .

والدكتور حسن من « سعيدة » أم كلثوم . هكذا بدأت علاقتهما فسمع : وطربة :

ولكن أم كلثوم كانت تتردد عليه للعلاج في سنة ١٩٥٤ علاقة عادية أخرى : طبيب ، ومريضة .

وتطورت هذه العلاقة العادية الى اتفاق عاطفي .. ثم الى الزواج وتم الزواج بعد عودة أم كلثوم من رحلتها الى أمريكا للعلاج . تم في سنة ١٩٥٥ .

وعندما تجلس أم كلثوم لن تسمع أسم حسن الحفناوي .

وعندما تجلس مع الدكتور حسن لن تسمع اسم أم كلثوم .

وجزء كبير من مجهود الدكتور الحفناوي يضيع في الهرب من الصحفيين . قبل الزواج كان يحضر حفلاتها العامة بانتظام . بعد الزواج اكتشفته عدسات المصورين فتوقف عن الذهاب واكتفى بسماع زوجته في البيت . وعندما بدأت أم كلثوم تسافر الى الدول العربية للغناء كان الدكتور حسن يذهب الى المطار لتوديعها ومرة أخرى اكتشفته عدسات المصورين .. فتوقف عن الذهاب الى المطار ، واكتفى بتوديع زوجته في البيت .

ان هذه التصرفات ـ وغيرها كثير ـ هي أصرار من الطرفين على الا تختلط حياتهما الخاصة بحياتهما العامة . اصرار يصل احيانا الى حد التزمت . انه تزمت لان شخصية الانسان واحدة في الحالين أمام الناس ، وبعيدا عن الناس . انها شخصية واحدة .. أو من المفروض أن تكون واحدة . لهذا فان البحث في الجانب الشخصي لحياة الفنان هو أمر مهم .. في الحدود التي تؤدي الى استكمال بحث شخصيته العامة .

ولكن مثل هذا الرأي لا يقنع أم كلثوم بسهولة . ولفترة طويلة جدا ـ مازالت مستمرة ـ لم يكن أي صحفي يستطيع أن يسأل أم كلثوم عن حياتها الخاصة . عيب . أن الصحفي يشرك أم كلثوم في النهاية ـ بأصبع على شفتيه ـ دون أن يناقش حياتها الخاصة .

ولكن أم كلثوم تطورت . يستطيع الصحفي الآن أن يناقشها بدرجة محدودة في حياتها الخاصة . ولكنه سيكتشف بعد لحظة أن أم كلثوم قد حولت الحديث عن حياتها الى حديث عن فنها . فن !

ان هذه العزلة التي تقيمها أم كلثوم بين شخصيتها العبقرية وشخصيتها الخاصة لها مظاهر كثيرة في حياتنا نفسها :

ان الفيلا التي تسكنها أم كلثوم تقع على الجانب الغربي من نيل القاهرة . فيلا وردية اللون .

والفيلا يحيطها سور دائري . هذا السور هو حاجز بين أم كلثوم التي يعرفها الناس ، وأم كلثوم التي لا يعرفها الناس . حاجز مرتفع ، قبل هذا السور تحتفظ أم كلثوم لنفسها بسلطتها كفنانة . بعد السور تحتفظ لنفسها بحريتها كزوجة ، كأنسانة ، كفرد عادي .

هنا — في داخل هذه الفيلا — تريد أم كلثوم أن تستريح ، تستريح تستريح . انها تستريح كمقدمة لعمل فنائي جديد . فالفناء ايضا يحتاج الى مجهود . الفناء يحتاج الى استعداد . الفناء ... ... ماهذا ؟ لقد بدانا بحياة أم كلثوم فانتهينا الى غنـاء أم كلثوم ! الم أقل لك ان أم كلثوم تحول كل حديث عن حياتهـا الى حديث عن فنها ؟ ! انتباه .

◎❖◎

ان شخصية أم كلثوم كفنانة هي امتداد لشخصيتها كانسانة . انها غير عادية في فنها . لهذا تصر على أن تكون عادية في حياتها .. في اسلوبها .. في حديثها . هذا هو الانطباع الاول الذي تخرج به بعد اول دقيقة من الحديث مع أم كلثوم في بيتها .

ان وجهها — في بداية الحديث — يعطي لنفسه اجازة من الانفعال مستمعا الى ما تقوله أنت . على هذا الوجه نظارة سـوداء . خلف النظارة تختفي عين أم كلثوم منتكرة . ان الانطباع الدائم الذي تتركه عيناها هو قوة الارادة . عندما تصل هذه القوة الى حدها الاقصى تصبح عنادا . عندما تهبط الى حدها الادنى تصبح اصرارا .

واذا تكلمت أم كلثوم فانها تضغط دائما على حروف الـكلمات . يداها تسـاعدان في هذا الضغط . تعبيرات وجهها تؤكد المعنى . وجه خال من الزوايا القاطعة ، معبأ بالعواطف الحادة .

ان الكلمات تخرج من فم أم كلثوم متلائمة مع جو الحديث . انها كلمات حارة غالبا باردة نادرا . كلمات مكيفة الهواء .

◎❖◎

ولكن أم كلثوم لاتندمج في أي حديث من السطر الاول .

انها — في البداية — تتكلم برأسـها ، لا بشفتيها . انها تسـتمع .. وتستمع . كلمة أو كلمتين ، ثم تستمع مرة أخرى .

اقول ان ام كلثوم فى حياتها الخاصة منعزلة عن الناس ، هذه العادة جعلتنى اقول لها مره : انك قضيت ساعات وساعات على امتداد حياتك الفنية امام الكاميرات والميكروفونات .. تجيبين وتسألين . ان هذا كله يشير الى انك تحبين الناس . أو تهتمين بسماع آرائهم على الاقل . ومع ذلك فانا أعرف انك فى حياتك الخاصة نادرا ما تختلطين بالناس . نادرا ما تلغى المسافة بينك وبينهم . الا ترين أن هذا تناقض ؟

وكان رد ام كلثوم ببساطه : هذا صحيح . انني اهتم بسماعة آراء المجتمع فيما أقدمه . ولكننى مع ذلك لست نجمة مجتمع . لست كذلك بمعنى انى لا افضل ان يرانى الناس فى كل ركن يسديرون اليه . لا افضل أن اكون من الذين يراهم الناس موجودين فى كل سهرة .. ظاهرين فى كل مناسبة . على ذلك . فانا لست من الذين يزورون كثيرا أو يزارون كثيرا . لست من الذين يعشقون حياة صاخبة . انا حريصة فقط على أن أقوم بدورى الفنى . بعدها انسحب فورا متراجعة الى حياتى الخاصة . تعرف ليه ؟ لان الناس اما ان بنى نفسه ، أو بدمر نفسه . وانا حريصة . — حتى الان — على أن ابنى نفسى . وهذا فى الواقع ليس تناقضا كما قد يبدو . ان عملى يفرض على بعض الاعباء التى جعلتنى أختار هذا الاسلوب فى الحياة .

وعدت اسأل ام كلثوم : ما الذى جعلك تصبحين فنانة ؟

وردت بسرعة : « لم اكن مطلقا اى شىء آخر . ولا اريد ان اكون اى شىء آخر . »

هنا رفضت ان اقتنع برد ام كلثوم !

رفضت لاننى لا استطيع ان اقول أمين هنا بسهولة .. حتى لام كلثوم !

قلت لها : انك تحدثيننى كما لو كان عملك هو كل شىء فى حياتك . ومع ذلك فانا اعلم أن هذا غير صحيح . اعلم مثلا انك تعطين حياتك الزوجية اهتماما يساوى على الاقل اهتمامك بعملك . اليس كذلك ؟

وضحكت ام كلثوم وهى ترد : طبعا .. هذا شىء ، وهذا شىء . ما دمت زوجة فلابد أن اقوم بواجباتى كزوجة . لابد الا يكون

[illegible]
[illegible]

انشغالى بعملى عذرا لتقصيرى فى حياتى الزوجية . ومع ذلك ، فحتى هنا ليست هذه هى القاعدة دائما . هناك استثناءات أحيانا . استثناءات زوجية ؛ ليست مشاكل زوجية. ان مايجعلها كذلك هو ان زوجى الدكتور حسن وأنا نقدر أعباء بعضنا . أحيانا يـ حك الدكتور حسن فى ابحاثه الطبية ويسهر معها ويشغل بها. أنا لا الومه على ذلك . نحن اذن لا نتبادل المشاكل . نحن نتبادل التقدير . ان كلا منا يعلم أن المشاكل الزوجية سببها غالبا سوء التقدير . ما دام لا يوجد سوء تقدير ، فلا توجد مشاكل . على اننى لا اقول ان اختفاء سوء التقدير هو الاساس الوحيد للحياة الزوجية . لا بد ايضا من التقدير . وفى هذه الحدود فانى وزوجى نبنى حياتنا على أساس من التقدير المستمر . تقدير متبادل .

ومن الامور المتكررة كل يوم جمعة ان تخرج ام كلثوم فى جولة مع زوجها سيرا على الاقدام فى شارع النيل . ان ام كلثوم تحب المشى . انها تسير يوميا لمدة ساعة تقريبا على النيل « .. ما عدا أيام الصيف ، لان الجو يبقى حر » .

وهى تصلى. ومن احسن اوقاتها تلك التى تجلس فيها ممدودة القدمين حافية القدمين ، مرددة آيات القرآن الكريم . ان الصلاة والمشى جزءان من التعاليد الثابتة فى حياة أم كلثوم . مواعيد النوم والاستيقاظ ايضا ثابتة غالبا . فى اليوم العادى لا تتأخر فى النوم. بالكثير الساعة الحادية عشرة مساء . ثم تستيقظ فى الثامنة صباحا . لا افطار . مجرد فنجال شاى . الغداء ايضا حسب الظروف أما الوجبة الرئيسية فهى العشاء .

ولكن ، عندما تكون لديها بروفات او حفل عام .. يتغير الجدول ! الغداء يصبح هو الوجبة الرئيسية لحوم طيور وحمراوات . « الشعرية » من احب الاطعمة عند ام كلثوم . بعد الغداء تشرب دائما عصير فواكه طبيعى . عصير معد فى المنزل . غالبا عصير جوافه .

وفى ليلة الغناء لاتتناول اية اطعمة فى المساء . لا عشاء . ولكنها قبل الغناء لابد ان تشرب فنجال قهوه .. بارد . عادة . بعد الغناء ساندويتش ، ولا نوم حتى الصباح .

وحتى سنوات قليلة مضت كانت ام كلثوم تقوم دائما بزيارة

مسجد الحسين ومسجد السيدة زينب قبل ان تفنى . اما الآن فهى تكتفى بقراءة آيات من القرآن الكريم . انها تتمتم بآيات القرآن فى كل خطوة .. حتى عندما تسير فى الشارع او تركب سيارة . لقد ركبت معى السيارة مرة فى طريقها من منزلها الى مبنى التليفزيون . وفى اول خمس دقائق اكتشفت ان عقلها ليس معى، انها تردد آيات القرآن سرا . بعد لحظات كانت مستعدة للكلام . ساعتها ابطأت السيارة وبدأت اجرى معها حوارا بالخطوة السريعة .

هكذا اجابت ام كلثوم !

ـ ما هى اكبر خطيئة : ان ترى الخطأ ولا تنبه اليه .

ـ أحسن صديق : شخص يشاركك الملك .

ـ احسن مكان : حيث تنجح .

ـ اقصر طريق للنجاح : العمل .

ـ احسن عمل : الذى تحبه .

ـ أكبر راحة : ان تؤدى عملك جيدا .

ـ أكبر خطأ : اليأس . انه موت مبكر !

ـ أسهل شىء : ان تجد خطأ لشخص آخر .

ـ اكبر عيب : الغرور .

ـ احسن مدرس : شخص يرفض ان يجاملك .

ـ احقر شعور : الحسد .

ـ أكبر لغز : الحياة .

ـ اعظم شىء فى العالم : الحب .

ـ أكبر مقلب : شخص لا يفهم ما تريد .

ـ أكبر عدو : اسرائيل .

ـ اعظم مهمة : أن تفتدى بلدنا بحياتنا .

ـ اكبر امل : ان تعود فلسطين .

ـ اشرف واجب : الدفاع عن الحق .

ـ اسمى فكرة : الله .

ان أم كلثوم تفاءل بقراءة القرآن الكريم . وتتفاءل بحمل مصحف صغير فى حقيبة يدها أينما تسير . ولكنها تتشاءم اذا نسيت أن تأخذ معها عند سفرها وساده خاصة تنام عليها . فى الواقع انها تكره اصلا أن تتشاءم . لان « .. التشاؤم ، ينحول فيما بعد الى شؤم حقيقى » .

والسعاده بالنسبة لام كلثوم « .. مسألة نسبة . فما يسعدنى قد لا يسعدك . وما يسعدك قد لا يسعد شخصا ثالثا . ان كلا منا يبحث فى السعادة عن الجزء الذى يهمه » .

اما المراه فى رايها فهى « .. الاساس فى كل شىء . انها البداية نحو خلق اسرة متماسكة . وكلما كانت المراه مثقفه زادت قدرتها على فهم زوجها ودفعه الى الامام . وما تقدمه بلدنا للمراه اليوم سوف تسترده قيمه وثقافه وكفاءة من الجيل الحديد بعد عشرين سنة » .

بعد هذه الجملة هاى راى أم كلثوم فى المراة يريد تفصيلا ..

من رايها مثلا ..

« .. **ان المراة السودانية** اسقة بحشمة ؛ محترمة باعجاب ، وهى بالفعل جديرة بالاحترام الذى يبديه لها الرجل السودانى ..

« .. **اما المراة فى المغرب وتونس** فانها جميلة جدا .. خصوصا بزيها الوطنى .. جميلة ومثقفة ..

« .. **والمراة اللبنانية** هى اسرع امراة عربية الى الموضة . ان الموضة تبدأ فى بيروت دائما ، ثم تنتشر بعد ذلك ..

« **والمراة الكويتية** تحاول التوفيق بين حشمة مجتمعها وموضة بيروت . انها فى منتصف المسافة بين المراة السودانية والمراة اللبنانية ..

« .. وعلى اى حال ، فان المراة العربية بصفة عامة أصبحت تهتم بالذوق الفنى اكثر من اى وقت مضى .. والذوق فى حد ذاته جزء من الثقافة » ..

عنبان قصة بليد .. لا بد أن كلريدام كلثوم قبل الغناء ...

والواقع ان أم كلثوم نفسها جريصة على الثقافة . فقد تعلمت الفرنسية طلاقة ، الى جانب قليل من الانجليزية . وأم كلثوم تعزف على العود . وهى تقرأ كثيرا . تقرأ الشعر . انك لاتستطيع أن ترمى بحجر فى بيت أم كلثوم دون أن تصيب ديوانا من الشعر .. أو حتى بيتا !

ان أم كلثوم تحتفظ بدواوين المتنبى وابو نواس وابن الفارض ومهيار الديلمى . تحتفظ بكتاب الاغانى لابى الفرج الاصفهانى . تحتفظ ايضا بمختارات محمود سامى البارودى واحمد شوقى وحافظ ابراهيم . من قراءاتها ايضا كتاب « كليلة ودمنة » وكتاب « حديث عيسى ابن هشام » للمويلحى .

ومن الكتب التى تحب أن تقرأها وتعيد قراءتها كتاب « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل . وكتاب « الايام » للدكتور طه حسين .

بعد الكتب كانت أم كلثوم تهوى مشاهدة الافلام السينمائية وبعض المسرحيات ، خصوصا مسرحيات يوسف وهبى . ولكنها توقفت عن ذلك منذ زمن طويل . لقد حل الراديو والتليفزيون محل السينما والمسرح . فى الراديو تحب سماع الموسيقى والبرامج الدينية .

وبالاضافة الى ذلك فلديها عدد ضخم من الاسطوانات الموسيقية انها تحب سماع الموسيقى الهندية والتركية ، بالاضافة الى الموسيقى الشرقية .

وأم كلثوم سبق ان حاولت التلحين . ولكنها فشلت مرتين . لقد لحنت لنفسها فى مطلع حياتها الفنية طقطوقة (على عينى الهجر دامنى) ومونولوج (يا نسيم الفجر ربان الندى) . وهما من نظم الشاعر احمد رامى .. ومسجلتان فعلا على اسطوانات .

فى الواقع انها لم تشجع نفسها على الاستمرار فى هذا الاتجاه ، بالرغم من أن عددا من أصدقائها شجعها على ذلك . السبب « .. اننى ارى ان الانسان لابد أن يرغم نفسه على التخصص » .

وايمانها بالتخصص هو الذى يجعلها تؤمن بأن التليفزيون يجب ان يكون لديه فنانوه المتخصصون فيه . انها تقول « .. كنت أحب

هذا من الغنائين مثلما كنت أسمعهم في الراديو . ولكنني مثلما بدات اراهم في التليفزيون قل اعجابي بهم » .

●●●

وام كلثوم بعد هذا كله تحب ان تسمع نفسها . انها تقول لنفسها « آه » ! وهي عندما تفعل ذلك تكون بمفردها . ام كلثوم وحدها . مع ام كلثوم . وهي تقول « .. انني اسوأ مستمع لنفسي ! فحينما أسمع تسجيلاتي .. اسمعها باذن اخرى . اذن الناقد القاسي . الناقد الذي يعرف ان كل شيء كان يمكن ان يكون احسن » وعملي كان يمكن ان يكون افضل . بل انني لا ارضى عن غنائي سوى مرتين في السنة ، هما الليلتان احس فيهما فعلا انني تفوقت على نفسي » .

وهي تقول ايضا : « .. انني حريصة جدا على ان تكون حياتي مليئة باكبر قدر من العمل ، واكبر قدر من النظام . ان العمل والنظام لم يساعداني فنيا فقط ، وانما ساعداني صحيا ايضا بدرجة متساوية . انني مثلا مدينة لفني بصحتي . ان التوم المكون والسهر نادرا والقراءة المستمرة والاستماع الدائم .. ليست مجرد عادات اجتماعية او ثقافية . انها ايضا عادات فنية . وبالاضافة الى ذلك . فن الغناء بالنسبة لي هو متنفس لاشياء كثيرة . متنفس لطاقات كثيرة لا اجد وسيلة اخرى للتعبير عنها » .

وهنا خطر لي فجاة ان اسال : ام كلثوم .. لماذا تغنين ؟

ـ ايه .. ؟

ـ لماذا تغنين ؟

ـ آه .. لانني اريد ان اكتشف في نفسي شيئا اريد التعبير عنه »

ـ وهل حققت لك اغانيك هذا التوقع ؟

ـ لا . ليس بعد »

ـ الا يمكن ان يكون غناؤك من اجل النقود .. او من اجل الشهرة مثلا ؟

ـ ممكن .. ولكن هذا ليس صحيحا الان ..

ـ ليه ؟

ـ اولا لانني لم اعد في حاجة الى النقود .. حاجتي اليها انتهت

طفولتي مثلا . تضي الاجابة بالنسبة للشهرة . كل المسألة انني اغني لانني احس احيانا بأنه ربما تكون لدى فكرة أريد أن انقلها أو عاطفة أريد ان اعبر عنها ، او هواية اريد ان امارسها . تأتي بعد هذا كله نقطة هامة جدا : ان الانسان لابد أن يعمل ما دام قادرا على ذلك . لابد أن يعمـــل .. لان قيمته هي عمله . ليست ثروته .. ليست شهرته . وأنا لا اتصور يوما من حياتي يمر من غير عمـل . انني حريصة على أن تكون حياتي اطارا لعملي . حياتي هي الاطـار .. والعمل شيء مكمل له .. شيء مجمل له .

ـ بمناسبة العمل .. هل يتطلب عملك نفقـــات كثيرة في بعض النواحي .. الملابس مثلا ؟

ـ لا . ليس دائما . وليس كثيرا . آه .. تصور ، انه نشر عني خبر مرة يقول ان الفـتان الـــواريه الذي ارتديه يتكلف ٤٠٠ جنيه . معقول ؟ لا أدري من اين جاءوا بهذا الرقم . ان فساتيني تتكلف اقل من ذلك بكثير . اقل جدا .

ـ وافرض انه تتكلف ٤٠٠ جنيه .. يجري أيه ؟

ـ لا شيء . الا ان المهم في المسألة ليست تكاليف الفســتان .. انما ذوقه . هكذا ارى . وبالنسبة لي فانني لا اتقل الموضـة ، مع انني اتابعها . اتابعها لكي أحد منها ما يناسـبني . انا لا أريد ان ارتدي فستانا يلفت نظر النـاس .. والا تبقى معـرض .. موش موضة ! ان اهم اربع صفات في الفســتان الذي ارتديه هي : اولا ـ ان يكون حشمة . ثانيا ـ الا يكون متخلفـا عن خطوط الموضـــة السائدة . ثالثا ـ أن يكون هناك ذوق في الوانه .. بمعنى أن تكون الالوان متسجمة في تركيبها مع بعضها . أما الصفة الاخيرة فهي ان يكون الفستان بسيطا . ان البســاطة هي دائما المشكلة .. وهي الحل » !

وعندما انتهت أم كلثوم من كلماتها بدأت افكر . انه سوء تفاهم هذا ســـوء تفاهم منتشر بين أم كلثوم من ناحيـة ، وبين جزء من جمهورها من ناحية اخرى . نتيجة غير مقصودة لطبيعة العـلاقة بين الاثنين . المشكلة ـ في رأيي ـ هي أن الجمهور « بعيد » أم كلثوم وعندما « نصد » احدا فاننا نضعه على مسافة بعيدة منا . انـنـا نحيطه بهالة تختلط فيها حقائق قليلة بخيال كثير . انه دائما يلبس

« اقلى » ويتكلم « احسن » ويتصرف بلباقة « اكثر » . انه معفى من الانفعال ومستثنى من الخطأ ..

وهذا هو وجه الخطأ !!

لقد سألتنى فتاة مرة : هل تعتقد ان ام كلثوم مثل اى واحدة فينا .. تحب وتكره ، تصيب وتخطىء . تفرح وتبكى . تتفاءل وتتشاءم ؟

طبعا ام كلثوم هى هذا كله ! ان صورة ام كلثوم لن تكبر بمزيد من الخيال .. بل بمزيد من الحقائق . أم كلثوم فى حياتها العادية ليست شخصا مختلفا عن كل الاشخاص . انها انسانة عادية جدا . وربما كان الخلاف فى الدرجة ، ولكنه ليس خلافا فى النوع . خلاف يرجع الى ان عواطف الفنان دائما عواطف سكوب . عواطف مركزة وعميقة .

ام كلثوم تسعد وتتألم .

طبعا هى تسعد عندما تنجح فى عملها . ولكنها تتألم جدا عندما ترى مريضا امامها ولا تستطيع أن تفعل له شيئا . كان لديها مرة « شغالة» تعمل فى منزلها ، ثم اصيبت ساقها بكسر . وعلى الفور القت كل ارتباطاتها السابقة ونزلت بالفتاة الى مستشفى الهلال بالقاهرة . وبعد أن أجرى المستشفى اللازم للفتاة استعدت أم كلثوم للعودة الى منزلها تاركة الفتاة فى المستشفى بناء على طلب الاطباء . فى هذه اللحظة بكت الطفلة . « .. قالت لى : لازم ارجع معاكى . ولم استطع ان أحتمل دموع الطفلة. عدت بها معى وطلبت من الطبيب أن يعالجها فى المنزل » .

ام كلثوم تفرح وتبكى . لقد بكت مرة بعد نجاح حفلتها بمدينة باريس سنة ١٩٦٨ . وقتها قالت « مع كل هذا النجاح الذى حققه الحفل ، الا اننى كنت اتمنى ان امثل بلدى هنا وهى فى ظروف افضل مما اصبحت فيه بعد النكسة » .

ام كلثوم تعرف الازمات النفسية ..

ان اعنف ازمة مرت بها فى السنوات الاخيرة كانت قبل وبعد علاجها من تضخم الغدة الدرقية. لقد ظلت الغدة تؤلمها لمدة ثمانى سنوات ، الامر الذى هددها بالتوقف تماما عن الغناء . وعندما ذهبت الى امريكا لعلاج الغدة سنة ١٩٥٤ توفى اخوها خالد وهى

هناك . يومها حرص الاطباء على عدم ابلاغها بالخبر ، بعد ان علموا مدى حبها لخالد ..

وعادت ام كلثوم الى القاهرة فعلا دون ان تعلم بالخبر . انها لم تعلم الا بعد أن وصلت الى المنزل . خبر سبب لها اقصى درجات الالم . فى الواقع ان وفاة اخيها سببت لها أزمة نفسية لازمتها مدة طويلة .. خلال هذه الازمة اعتزلت ام كلثوم الحياة تقريبا . كانت تحبس نفسها فى حجرة صغيرة بالمنزل دون أن تتكلم الى أحد .. او تطيق أن يتكلم اليها أحد ..

وبسبب هذه الازمة تدخل الاطباء ..

قال الاطباء انه لا امل .. « .. لا امل فى ان تعود ام كلثوم الى حالتها النفسية الاولى الا اذا عادت الى الغناء من جديد » .

وام كلثوم تكره ...

انها تكره ان يخدعها احـــد . انها تروى مثلا هذه القصـــة : « انتهيت من الغناء فى احدى الحفلات .. ثم جاء الى واحـــد من المعجبين الذين اعتز بهم .

قال لى : ايه ده .. انت كنت مش معقولة الليلة دى !

سألته : يعنى ايه ؟

قال : يعنى عملتى حاجات ماحصلتش قبل كده !

سألته : يعنى ايه ؟

قال : يعنى كنت روعة . كنت عظيمة . كنت مبدعة .

ولم افعل شيئا غير اننى شتمته !

لقـد فعلت ذلك لاننى فى تلك الليلة بالذات لم اغن كما يجب ان اغنى . كانت اعصابى متوترة وحالتى النفسية سيئة ..

فلم استطع حتى ان اكون فى مستوى العادى . ولهذا كرهت من هذا المستمع نفاقه . واحـــدة من اثنين : اما انه لا يفهم ، وانا لا احب ان يسمعنى من لا يفهم . واما انه يفهم ولكنه ينـافقنى ، وانا اكره من ينافقنى ، لانه لن يجبرنى الى حبوبى » !

وأم كلثوم تضحك !

ان خفة دمها هنا قد تتركز فى موقف ، أو صدفة ، أو قفشة .

دخل اليها فى البيت مرة زميل صحفى . زميل قصير القامة . ومسافحته أم كلثوم واقفة وهى تقول له : انظن انت الواحد مقعد لك

وكان الموسيقار محمد القصبجى مشهورا عنه بأنه يصبغ شعر رأسه وسوالفه حتى يبدو أسود اللون دائما . ولكن أم كلثوم قالت له فى البيت مرة : كفاية باه يامحمد .. دى بقت ختامة !

وفى مرة أخرى كان محمد القصبجى مسافرا معها فى القطار . ثم تذكر فجأة انه نسى ان يصبغ شاربه . فأخرج قلما اسود من جيبه وبدأ يصبغ شاربه . حينئذ اشارت اليه أم كلثوم ضاحكة ' شوفوا الرجل رجع شاب .. « بجرة قلم » !!

وفى مرة علقت لى على مقال نشر عنها فى مجلة اسبوعية . مقال كتب بلغة صعبة للغاية . وعندما قالت لى أم كلثوم ان المقال لم يعجبها سألتها عن السبب فقالت : لان كل كلمة فيه لابسه عمة !!

وأم كلثوم تحب ..

ولكن حبها من النوع التفصيلى ، المحدد ، انها تحب بيت شعر ، أو صورة ، أو موقفا ، أو نكتة .. بالذات ، وبالتحديد . وعندما تتذكر شيئا فانها تتذكر هذا البيت ، هذا الموقف ، هذه الصورة ، هذا الطفل .. الطفل الذى يملأ بيت أم كلثوم بشقاوته هو عادل .

وعن عادل تقول أم كلثوم : « ان عادل هو اشقى اطفال الاسرة كلها . ومع ذلك فمنذ اليوم الذى ولدته فيه بنت عمى ولنا أحبه جدا . لقد جاءت به بنت عمى منذ أربع سنوات ونصف سنة وهو رضيع لكى ابحث لها عن طبيب يعالجه من لين العظام . ثم اقتضى علاجه ان يبقى فى هذا المنزل . بعدها طلبت من امه ان تقيم معه هنا انه الان فى مدرسة الحضانة ، وعمره لا يزيد على خمس سنوات ، ومع ذلك فانه فى غاية الذكاء وسرعة البديهة .. أحيانا اتصور انه يملك عقل رجل فى جسم طفل » .

وحتى الصورة التى تحبها أم كلثوم فى اليوم هى صورة طفلة

قبلها اثناء زيارتها السودان . في الواقع انك سوف تجد مثل هذه الصورة منشورة بعد كل حفل لام كلثوم . صـــورة طفلة صغيرة تقبلها أم كلثوم .

اكبر طفلاتي منزل ام كلثوم اسمها نعمات . انها بنت ابن اخ ام كلثوم لقد انفصل ابواها بالطلاق منذ سنوات . ثم تزوجت والدتها وتزوج ابوها . بقيت الفتاة الصغيرة ـ وعمرها تسع سنوات . اخذتهـــا أم كلثوم لتربيها هي في منزلها . ولم تكن الفتاة قد دخلت مدرسة ولا حتى ذهبت الى كتاب . وعنـــدما بدأت نعمات تستقر في منزل أم كلثوم احضرت لها مدرسا خصوصيا استمر يعلمها لمائية شهور انها فتاة ذكية . لذلك نجحت بتفوق عندما أدت الامتحان في مقرر ثلاث سنوات دفعة واحدة . انها الآن في السنة الثـانية بالمرحلة الاعدادية ، وهي باستمرار تتفوق في مدرستها . بالذات في اللغتين العربية والانجليزية .

ان ام كلثوم تحب نعمات ، مثلما احبت عادل من قبل .

ولقد سألت ام كلثوم مرة : هل تعتقدين ان الزوج والزوجة هما الطرفان الوحيدان في الاسرة ؟

قالت ام كلثوم : الزوج والزوجة هما الطرفان الاساســيان في الحياة العائلية ، ولكنهما ليسا الطرفين الوحيدين . طبعا هنـــاك اطراف اخرى ، منها وجود الاطفال مثلا ، ولعل هذا ما تقصده ..

وقلت بسرعة : صحيح صحيح . هذا بالضبط ما اقصـــده . ولعلني استطيع هنا ان اسألك في موضوعات لم يسبق لك التحدث فيها مطلقا من قبل . مثلا : الم يؤد عدم انجابك لاطفال الى اضعاف حياتك الزوجية ؟

وام كلثوم ترد . ليست الفتاة ، وانما ام كلثوم الانـــانة تقول « ابدا ، ابدا ، ابدا . بل ان هذا السبب نفسه جعل مشاعري نحو الاطفال وحبي لهم يكبر ويتضـــاعف . ان اسرتي كلها تعلم مدى شعوري نحو اطفالهم وتعلقي بهم وتعلقهم بي . ان اهم شيء اشتريته من السودان مثلا في زيارتي الاخيرة كان تمساحا صغيرا . تمساحا حقيقيا . لقد فرح به الاطفال جـدا ، وفرحت انا لفرحتهم . لانه لايوجد في الدنيا كلها ما يساوي ابتســـامة طفل وسعادة طفل ، ولا يوجد اشقى ولا اسوأ من تعاسة طفل .. ودمعة طفل » .

عند هذه الكلمة من أم كلثوم فقد قلبي النطق .

في الواقع أنا أعلم كم هي صادقة في هذه الكلمات . ومن يدري لعل هذه المشاعر هي تعويض عن عاطفة أساسية اختفت من حياة أم كلثوم الانسانة .

ان أم كلثوم فشلت من قبل في ان تكون ست بيت . وفشلت في ان تكون ملحنة ..

ولكن فشلها الكبير حكم قدري .

لقد فشلت في ابسط ما يدل عليه اسمها : ان أم كلثوم .. لا تستطيع ان تكون أما !

« انهـــا الطربة الوهـــوبة
التى اثبتت ان الغنـــــــاء
فن رؤوس وقـــــلوب » ٥٥
عباس محمود العقاد

أم كلثوم
بين
احمد رامى والسنباطى وعبد الوهاب!

ليس صحيحا ان اغنية « انت عمرى » كانت اول لقاء فنى بين ام كلثوم وعبد الوهاب !

لقد اذيعت الاغنية فى ٦ مارس سنة ١٩٦٤ .

ولكن ام كلثوم وعبدالوهاب غنيا معا قبل هذه الاغنية بـ ٣٧سنة

بل ان محمد عبد الوهاب لحن اغنية اخرى ، غنتها ام كلثوم قبل « انت عمرى » بعشرين سنة !

لقد غنيا معا فى سنة ١٩٢٧ .

كان اول لقاء بين المطربة « ذائعة الصيت » ام كلثوم ، وبين المطرب « الشاب » محمد عبد الوهاب .

تم اللقاء فى منزل والد المهندس ابو بكر خيرت . ان صاحب المنزل كان من هواة الموسيقى والغناء . وكان بيته مقرا دائما لندوات اهل الفن وسهراتهم .

وفى احدى تلك السهرات تصادف وجود ام كلثوم ومحمد عبد الوهاب .

و .. غنيا معا !

غنيا مونولوجا ـ مشهورا وقتها ـ من اوبريت «العشرة الطيبة» التى وضع الحانها سيد درويش . وكان المونولوج من كلمات بديع خيرى . تقول الكلمات :

على قد الليل مايطول ..

مسترخى بسهرى ونوحى ..

وفى حبك بالى ..

من أول ما اشوفك ..

تترد روحي ...

والمونولوج عبارة عن مناجاة غنائية بين فتى وفتاة .

وقد تبادلت ام كلثوم الغناء فيه مع عبدالوهاب . وسمعها ليلتها عدد كبير من اهل الفن ، ومن بينهم حسن أنور وكيل معهدالموسيقى وقتها ، ومصطفى رضا .

وحاول الحاضرون تحويل هذه المحاولة الى عمل مشترك يستمع اليه الجمهور ...

ولكن المحاولة لم تنجح .

⊙✤⊙

وفى سنة ١٩٤٤ غنت ام كلثوم من تلحين عبد الوهاب !

لقد تمت هذه المحاولة فى سهرة ضمت توفيق الحكيم وفكرى اباظه والدكتور عبدالوهاب مورو وكامل الشناوى والممثلة — وقتها — كاميليا — ثم ... أم كلثوم وعبد الوهاب .

وفى السهرة سألت أم كلثوم كامل الشناوى : الم تحرك فيك « كاميليا » موهبة الشعر ؟

ورد كامل الشناوى بقصيدة يقول فيها :

لست أقوى على هواك ومالى

أمل فيك .. فارفقى بخيالى

ان بعض الجمال يذهل قلبى

عن ضلوعى .. فكيف كل الجمال

ليلتها قالت أم كلثوم أنها مستعدة لغناء القصيدة لو لحنها عبد الوهاب .. وبالفعل .. أمسك عبد الوهاب بالعود ، ولحن الكلمات .. التى ظلت أم كلثوم تغنيها — بناء على طلب الحاضرين — حتى الصباح !

⊙✤⊙

مرة اخرى لم تخرج هذه المحاولة الى الضوء .

ولم تتم ايضا محاولات اخرى بذلها عدد من اصدقاء الطرفين من

الصحفيين ، على ان تصريحاتهما الصحفيـة كانت تفيض بمشاعر المجاملة والتمنيات الطيبة .

كانت ام كلثـوم تقول : ان عبد الوهاب يكتفى بأن يلحن لى على صفحات الجرائد ..

وكان عبدالوهاب يقول : انني اعتقد ان ام كلثوم لاتريد ان الحن لها .

لم يكن ايهما يثق فى الآخر بما يكفى بعد لانتاج عمل غنائى مشترك .

لمـاذا .. ؟

فى الواقع توجد تفسيرات كثيرة لذلك . ولكن التفسير الوحيد المقبول هو تفسير بسيط . هذا هو : ان عبدالوهاب ـ فى مرحلته الفنية الاولى ـ كان فى الدرجة الاولى مطرب .. وفى الدرجة الثانية ملحن . كان عبدالوهاب ملحنا خصوصيا لعبد الوهاب . انه بالطبع ـ سيحتجز احسن الحانه لنفسه !

وفى نفس الوقت كانت ام كلثوم مطربة . هى تغنى للجمهور ، وعبد الوهاب يغنى للجمهـور . هى تقف على المسرح ، وهو ايضا يقف على المسرح .. الخ .

وعلى ذلك فمن المنصور ان يوجد بينهما شعور بالمنافسة . احيانا منافسة حادة . وهى فى كثير من الاحيان منافسة يغنيها وينميها كثير من المحيطين بالطرفين ..

❁❁❁

ثم تغير الحال ..

تراجعت مقدرة عبد الوهاب الاولى كمطرب الى الدرجة الثانية ، وحلت محلها مقـدرته كملحن . مرحلة اخرى دخلهـا عبد الوهاب والملحن ـ اى ملحن ـ عندما تصبح اصوات الآخرين هى وسيلته الوحيدة للوصول الى الجماهير .. فانه يبدأ فى التفكير بطريقة مختلفة

ان الشعور بالمنافسة لن يمنعه الآن ، ولكن الشعور بالتكامل هو الذى يدفعه .

وبالنسبة لأى ملحن ـ فما بالك بعبد الوهاب ؟ ـ لايوجد صوت اكثر اغراء من صوت ام كلثوم ، لاتوجد وسيلة اخرى اكثر ضمانا للوصول الى قلوب الجماهير ..

من هنا بدأت طبيعـة العلاقة الفنية بين ام كلثوم وعبد الوهاب .. تتغير .

ولكن العلاقة ـ حتى سنة ١٩٦٢ ـ لم تكن قد تغيرت بعد بما يسمح بتعاونهما معا . ان آثار سنين طويلة مضت .. لم تكن قد زالت تماما بعد .

ثم تغير الحال مرة أخرى فى يوليو سنة ١٩٦٣ .

ففى احتفال ٢٣ يوليو من تلك السنة اقام نادى الضباط حفلة ساهره حضرها الرئيس جمال عبد الناصر . وكانت أم كلثوم وعبد الوهاب من بين المشتركين فى الحفل .

وفى الاستراحة دعاهما الرئيس جمال عبدالناصر الى تناول العشاء على مائدته .

وقال جمال عبد الناصر لام كلثوم وعبدالوهاب . اين الاغنية التى نقرأ فى الصحف أن أم كلثوم ستغنيها ويلحنها عبد الوهاب ؟ ألم يحن الوقت بعد لكى تتحول الاغنية من كلام تكتبه الصحف .. الى كلام يغنيه الناس ؟! .

ان جمال عبد الناصر لخص فى سطرين امنية عاشها الجمهور اربعين سنة !

وخلال اسابيع قليلة كان العمل قد بدأ فى الاغنية الجديدة . كلمات اختارها عبد الوهاب اصلا لكى يغنيها هو . ولكنه عندما بدأ يلحنها اكتشف ان : « اللحن لن تستطيع التعبير عنه غير أم كلثوم » .

واتصل عبد الوهاب بأم كلثوم فقالت : لا مانع . تعال نبحث الامر معا .

ثم .. خرجت اغنية « انت عمرى » الى الناس . خرجت كبداية فى تعاون مشترك اتخذ من يومها بين أم كلثوم وعبد الوهاب .

والواقع ان الحان عبد الوهاب لام كلثوم تمثل مرحلة مختلفة فى تاريخها الفنى . ان عبد الوهاب نقل مستوى منافسة الملحنين على صوت أم كلثوم الى نقطة اكثر ارتفاعا . بل ان عبدالوهاب كان حريصا على ان يجعل المقدمات الموسيقية لاغانى أم كلثوم كعنوان الكتاب ، كخطاب العرش . فى خطاب العرش يتعهد رئيس الوزراء أمام الملك بأن حكومته ستعمل كذا وكذا وكذا ، انه يعطى هذه الوعود بعد أن يهاجم كل الحكومات السابقة . أنه خطاب مليء بالوعود والآمال . ومقدمات عبد الوهاب الموسيقية فى اغانى أم كلثوم هى ايضا جدول اعمال .. قائمة وعود موسيقية طويلة !

احمد راضي .. المستمع الاول

ولقد قال لى عبدالوهاب اكثر من مرة : «ان صوت ام كلثوم يتميز بأن قماشه عريض . ان فيه جمال القوة وحلاوة القفلة ورقة الجمال».

وعندما سألت ام كلثوم عن تعليقها قالت : هذا راى عبد الوهاب .

ـ يعنى ايه ؟

ـ يعنى راى عبد الوهاب !

ـ انا عايز رايك انت فى راى عبد الوهاب ...

ـ لا احب ان اتكلم عن نفسى . ان « نفسى » هى ابغض كلمة الى نفسى !.

❁❁❁

وعبد الوهاب يرى ايضا أن « ..لام كلثوم فضلين : فضلا كمغنية ... اذ انها جمعت من مواهب المطرب كل مايمكن للطاقة البشرية أن تجمعه . وفضلا آخر كمساهمة بعقلها فى رفع مستوى كلمات الاغانى فى مصر والشرق .. فلولا عقليتها الواعيه لما استطاعت ان تحتضن مثلا الشاعر احمد رامى ، وان تجعله يتعاون معها ويجود بالمعانى الرائعة التى تؤديها ام كلثوم احسن أداء » .

وبينما نجد أن محمد عبد الوهاب هو احدث ملحن تعاونت معه ام كلثوم .. فان احمد رامى كان اول شاعر تعاون معها فى تاريخ مبكر من حياتها الفنية .

لقد غنت أم كلثوم لاحمد رامى .. قبل أن تراه .

ان احمد رامى سافر الى باريس فى ديسمبر سنة ١٩٢٢ موفدا فى بعثة دراسية من دار الكتب المصرية .

وقبل سفره اعطى لصديقه الشيخ ابو العلا محمد قصيدة تقول :

الصب تفضحه عيونه وتنم عن وجد شئونه
انا تكتمنا الهوى والداء اقتله دفينة
يهاجنا نوح الحمام وكم يحركنا انينه

❁❁❁

وعاد رامى من باريس سنة ١٩٢٤ ليجد ان قصيدته قد تحولت الى اغنيه مشهورة لحنها الشيخ ابو العلا . اغنية تغنيها أم كلثوم .

ولم تكن ام كلثوم قد اقامت فى القاهرة بعد . كانت تأتى الى القاهرة للغناء فقط ثم تعود الى قريتها او تغنى فى مدن أخرى .

وظلّ رامي ثلاثة أيام يسأل عن ميعاد أول حفل تغني فيه أم كلثوم.

ان أحمد رامي قد ينسى تاريخ ميلاده . ولكنه لا ينسى تاريخ أول لقاء له مع أم كلثوم .

٢٤ يوليو سنة ١٩٢٤ .

في تلك الليلة اشترى الشاعر الشاب ـ الموظف بدار الكتب ـ أحمد رامي تذكرة بخمسة قروش دخل بها صالة سانتي في حديقة الأزبكية حيث بدأت أم كلثوم تغني .

ويقول رامي : « كنت توافا الى ان اسمع أم كلثوم وهي تغني قصيدتي . انها لا تعرفني بعد . ومع ذلك قمت في استحياء أقول لها كأنها تعرفني:

ـ أنا بقالي سنين بعيد عن مصر .. ونفسي أسمع قصيدتي !

وبسرعة بديهة ردت أم كلثوم ضاحكة : أهلا بك يا رامي .. حمد الله ع السلامة . حاضر !

وعندما بدأت أم كلثوم تغني .. أصبحت أنا في عالم آخر .. سحرني الصوت . سحرني جماله . سحرتني قوته . ولم أفق الا على صوت صديق لي يقول لي بعد الغناء : أم كلثوم مسافرة تكره تغني في راس البر .. مش تسلم عليها ؟!

وذهبت لأشكرها وأتمنى لها السلامة .

ثم مضت طوال الاربعين يوما التالية لا أستطيع سماع صوت آخر يغني . الى ان عادت أم كلثوم مرة أخرى لتحيي ليلة في كازينو البوسفور . .

مرة أخرى جلست صامتا في مقعدي كالمسحور .

ولكني في هذه المرة عبرت عن شعوري في قصيدة كتبتها عن صوت أم كلثوم أقول فيها :

صوتك هاج الشجوى في مسمعي ... ولو سئل المكنون من ادمعي
فيه صبابتي وفيه الضنى ... يشكو تباريح فؤادي معي
نظمت أشعاري وغنيتها ... منظومة العباب من ادمعي
كأنما لفظك في شدوه ... منحدر من دمعي الطبع

ولم تسمع أم كلثوم هذه القصيدة الا عندما زرتها لأول مرة في شهر أكتوبر من تلك السنة . يومها فوجئت بطلب غريب من أم كلثوم .

قالت لي : اريد منك أن تنظم لي اغنية زجلية !

وتوقف لساني عن النطق ! هذا طلب لا استطيعه ولا اقبله ! انني حتى تلك اللحظة لم أكن قد نظمت شطرا واحدا من الزجل . وحتى تلك اللحظة كنت قد اصدرت ثلاثة دواوين من الشعر ونشرت ترجمة لرباعيات الخيام عن الفارسية . لا لا . لن أكتب زجلا !

ولكن ام كلثوم استمرت في الحديث . قالت : انني غنيت لك من قبل قصيدة : « الصب تفضحه عيونه » . وانا أرى ان من حق الغناء أن يظفر بخيال الشعراء في أسلوب يفهمه العامة . حل وسط . والا .. هل يعجبك مستوى الاغاني التي تغنى في هذه الايام ؟!

عند هذه النقطة اقتنعت . وافقت على ان اكتب الزجل لاول مرة . لهذا كتبت لها : « حايف يكون حبك ليه شفقة عليه ... وانتي اللي في الدنيا ليه ضي عنية » .

ثم استمررت في كتاباتي لأم كلثوم . شعر مرة .. وزجل مرة . بعدها غنت لي ام كلثوم : « ياغائبا عن عيوني وحاضرا في فؤادي » — « ايها الفلك على وشك الرحيل » — « يانسيم الفجر ريان الندى » .. الى ان غنت لي : « ان كنت اسامح وانسى الاسية » . وهي الاغنية التي مثلت في وقتها طفرة غنائية » .

◎❖◎

انتهت ذكريات رامي . ولكن علاقـــه الفنية بام كلثوم لم تنته . فلقد غنت له أم كلثوم اكثر من مائتين وخمسين قطعة غنائية من بينها « رق الحبيب » و « ياما امر الفراق » و « ياطالمني » و « سهران لوحدي » و « رباعيات الخيام » و « انت الحب » .. الخ .

ولكن رامي — فوق علاقتـــه بام كلثوم كشاعر له علاقة أخرى بها كمستمع .

فمنذ استمع اليها لاول مرة سنة ١٩٢٤ ، لم تفته اي حفلة من حفلاتها الغنائية . لقد اصبح حريصا على ان يكون « مستمعها الاول » . هذا تعبير رامي .

وعندما كانت ام كلثوم تغني في الاقاليم لم يكن غناؤها ينتهي قبل الثانية صـــباحا . وكان رامي يخرج من الحفلة جريا الى محطة السكة الحديد حتى يلحق بقطار الصحف ويعود الى عمله بالقاهرة في الصباح الباكر .

وحينما بدأت ام كلثوم تسجل للاذاعة فى الثلاثينات .. كانت تأخذه لكى يستمع اليها اثناء التسجيل فى الاستوديو ، بشرط ان يجلس صامتا تماما . كانت ام كلثوم تفعل ذلك حتى يكون رامى امامها رمزا للجمهور فى خيالها ، جمهور صامت .

وكان رامى ـ طوال عمله بدار الكتب ـ يستعير لام كلثوم من الدار كل دواوين الشعر العربى القديم وكتب الادب .. ثم يناقشانها معا . وقد اشارت ام كلثوم لمجهود رامى هذا فى مكان آخر .

اما احمد رامى فيقول : « .. اننى مدين لام كلثوم بنشر شعرى . ان اقصى رقم وزع من أى ديوان طبعته كان خمسة آلاف نسخة . ولكننى اصبحت معروفا للملايين من خلال صوت ام كلثوم . ان اسطوانة (ان كنت اسامح) مثلا وزعت اكثر من نصف مليون نسخة » !

ويقول رامى ايضا : اننى كنت استفيد كثيرا من التعديلات التى تطلبها ام كلثوم فيما اكتبه . ففى اغنية « دليلى احتار » مثلا ، طلبت ام كلثوم تكرار جزء من المطلع يقول : وبين قربك وخوفى عليك .. دليلى احتار .. وحيرنى .

وفى اغنية « قصة حب » كنت قد كتبت بيتا اقول فيه :

عشت فيها بيقينى ثم عاشت فى ظنونى .

ولكن ام كلثوم قالت ان هذا البيت فيه فجوة . وانه يحسن ان اوضح كيف عشت فى ذكرياتى بيقينى ، ثم كيف عاشت هذه الذكريات فى ظنونى .

ولذلك اعدت كتابة البيت فاصبح كما يعرفه الناس الآن !

عشت فيها بيقينى وهى قرب ووصال
ثم عاشت فى ظنونى وهى وهم وخيال

والواقع ان رامى معه الحق فى نقطتين بالذات !

* ان ام كلثوم نشرت بغنائها الذوق الرفيع فى اللغة .
* ان شخصية ام كلثوم تمتد الى الكلمات التى تغنيها .

لقد لخص عباس محمود العقاد هاتين النقطتين عند ما كتب يقول عن ام كلثوم « .. انها المطربة الموهوبة التى اثبتت ان الغناء فن رءوس

وقلوب وليس بفن حناجر وافواه فحسب . فهي تفهم ماتغنيه . وتشعر بما تغنيه ، وتعطيه من عندها نصيبا وافيا الى جانب نصيب المؤلف ونصيب الملحن » ..

واستطيع ان اقول كلمات العقاد بطريقة اخرى : ان اغانى ام كلثوم هى الصدى الصوتى لام كلثوم . اما الكلمات ـ كلمات الاغانى ـ فهى الصدى العقلى لام كلثوم .

لقد غنت ام كلثوم للمحنين كثيرين : الشيخ ابو العلا ـ داود حسنى ـ فريد غصن ـ احمد صبرى ـ محمد القصبجى ـ زكريا احمد ـ السنباطى ـ عبدالوهاب ـ بليغ حمدى ـ محمد الموجى ـ الطويل.

وغنت لشعراء كثيرين : احمد شوقى ـ حافظ ابراهيم ـ رامى ـ بيرم التونسى ـ ابراهيم ناجى ـ احمد شفيق كامل ـ مرسى جميل عزيز ـ عبد الوهاب محمد ـ جورج جرداق .. الخ .

وفى كل مرة كان عقل ام كلثوم يتحول الى معمل . الى جهاز يقارن ، يختار ، يعدل ، يضيف ، يحذف ، يقرر ..

لقد عدلت مثلا فى كلمات الشاعر احمد شوقى . فصيدة « الى عرفات الله » مثلا . يقول المطلع الاصلى : عليك صلاة الله يا ابن محمد . الاشارة هنا الى الخديو . ولكنها غنته : عليك سلام الله ياخير زائر . وفى نفس القصيدة اصطدمت بكلمة : « العرصات » . كلمة قد يستهجنها البعض فاستبدلتها بكلمة : الشرفات .

وفى قصيدة ابراهيم ناجى : « الاطلال » اضافت الى القصيدة الاصلية هاتين الشطرتين :

هل رأى الحب سكارى مثلنا كم بنينا من خيال حولنا

ثم هذا البيت :

وانتبهنا بعد مازال الرحيق وافقنا .. ليت انا لانفيق

لقد كتب الشاعر هذين البيتين اصلا فى قصيدة اخرى بعنوان « الوداع » . ولكن ام كلثوم اضافتهما الى قصيدة « الاطلال » ، وبطريقة لاتستطيع اكتشافها من اول مرة .

لن الامثلة كثيرة ..

والمهم ليس هذا التعديل . المهم ان يكون التعديل الى احسن ـ الى ارق ..

ان أم كلثوم فى حرصها على تعديل ـ ثم اعادة تعديل ـ الكلمات قبل ان تغنيها انما تضع أيدينا على مفتاح آخر لفهمها . جانب آخر من شخصيتها الفنانية . جانب لم يكتشفه حتى الآن غير عدد قليل من الذين عملوا معها ..

ان مابحث عنه أم كلثوم هو الشيء الجديد . تبحث عن فكرة ، معنى ، تعبير ، جملة ، أو ـ حتى ـ كلمة ! انها تفضل ذلك نيابة عن مستمعيها . صفة ضرورية جدا لكل مطرب يريد النجـاح ، أو الاستمرار فى النجاح .

أم كلثوم يعجبها مثلا تعبير تقول فيه «بافكر فيك.. وانا نادى» أو « عزة جمالك فين .. من غير ذليل يهواك » او « واحشنى وانت قصاد عينى» أو « اغمض عينيك حتى تراني » تعجبها اغنية تتلاعب فيها بكلمات تقول « يسقينا الهنا .. ويقول بالهنـا » أو « ياما عيون شاغلوني .. لكن ولا شغلونى » ..

تعجبها صورة دقيقة الظلال يرسمها الشاعر بقوله :

ما بين بعدك وشـوقى اليـك
وبين قربك وخـوفى عليـك
دليلى احتـار .. وحـيرنى

تعجبها صورة تركز مراعا نفسيا حادا فى اربع كلمات تقول « غلبت اصالح فى روحى » او فى خمس كلمات تقول « آكاد اشك فيك وانت منى » ..

أم كلثوم تحب ان تتذوق التعبيرات القوية المركزة . تعبيرات مثل « ظالم الحسـن » أو « هل راى الحب سكارى مثلنا » أو « النوانى جمرات فى دمى » ، تعبيرات تصور نفس المعنى بأسلوب مختلف . مرة بقولها « انت القرب منى ليه .. حتى وانت بعيد عليه » ، ثم مرة اخرى « وانت معايا يصعب عليه .. رمشة عينيه ولا حتى ثانية » ..

لهذا السبب اقول ان مفتاح الشاعر الى صـوت أم كلثوم هو عقلها . والمفتاح الى عقلها هو الكلمة الجديدة .. الجملة الجديدة .. الصورة الجديدة . مسألة عبر عنها ذكى صـديق لأم كلثوم بقوله : « .. لو كنت شاعرا لكتبت ديوانى على شقتى ام كلثوم » سوء حظ ، فالكاتب هنا ليس شاعرا ، ومع ذلك فهذا أجمل تعبير قرأته لكاتب عن أم كلثوم ..

والواقع ان محاولة أم كلثوم التذوق لا تقتصر على الكلمات التي تغنيها فقط ، وانما تمتد الى اللحن أيضـــا . وان زكريا احمد ـ الفنان الموهوب الراحل ـ عندما عبر عن ذلك في مذكراته كتب يقول ان أم كلثوم « .. عـندما تجلس الى ملحن اغانيها أو يجلس اليها ، لا تكتفي بأن يقدم لها لحنا واحدا أو اثنين او ثلاثة .. وانما هي تريد اكثر من ذلك . وقد تطلب من الملحن أن يلحن الكوبليه لواحد مرات متعددة ، وتتظاهر بعدم قبول هـــذه الالحان .. وتتظاهر بعد ان تختار واحدا من الالحان المقدمة نسيان ما قدم لاعطية الواحده من الحـــان .. وتجدد في معظم الاغاني بالحان جديدة تبدو للمستمع الجديد انها وليدة الســـاعة .. وان كنت محزونة في أعماق ذاكرتها من بعيد » ..

مرة أخرى يكتب زكريا احمد قائلا « .. وذات مره قدمت لها غنية بثمانية الحان مختلفة ، لاتيح لها فرصه الاختيار في الوقت المناسب او في الاوقات المناسبة . أنني اعتبر ان أم كلثوم (اسطى) من خيرة (أسطوات) الفن .. وصـانعة من امهر صـانعات الغناء .. لهذا فقد اخصصتها باكثر من ستين لحنا ليس فيها لحن يشبه الآخر في تلحينه » ..

والواقع ان زكريا احمـد لحن لام كلثوم عددا من اروع واحب اغانيها عند الناس .. لحن لها « انا في انتظارك » و «أهل الهوى» و « الامل » و « غلبت أصالح في روحي » و « الأهات » و « هو صحيح الهوى غلاب » و « رق الحبيب » .. الخ .

وخلال احاديث طويلة متعددة لمست من أم كلثوم وفاء بالغ لعدد من الذين صاحبوها في حياتها الفنانية،من بينهم ـ بل على راسهم ـ زكريا أحمد .. شعور تبادله زكريا أحمد معها منـــذ أول لحنين قدمهما لها في سنة ١٩٢٥ وهما « اللي حبك يا هناء » من تاليف احمد رامي و « هو ده يخلص من الله » تأليف بديع خيري .

من هذا اليوم ـ يقول زكريا احمـد في مذكراته ـ اصـــبحنا « .. القصبجي وداود حسني وانا نلحن لها حتى قدم لها مسيو رو مدير شركة اوديون الاستاذ رياض السنباطي . ومنذ هـذا اليوم أصبح ملحنو أم كلثوم هم السنباطي والقصبجي وانا » ..

ام كلثوم بين فريد الاطرش ومحمد الموجي

السنباطي ..!!

نعم .. هذا هو الاسم الذي كتبه زكريا احمد . ان هذا الاسم مضلل . انه لا يدل باي حال على كل الرقه ، كل الجمال ، الذي تمتاز به الحان السنباطي لام كلثوم ؛ ان ام كلثوم تؤمن بالتخصص وتدلل هذا هو السبب في انها تسند الى السنباطي القصائد الصعبة ـ احيانا الصعبه جدا ـ لكي يقوم بتلحينها .

لقد التقت ام كلثوم بالسنباطي وهي صغيرة ، في الواقع انها كانت ليله ممطرة على محطه سكك حديد الدلتا في قرية قرين بالدقهلية كانت ام كلثوم ما تزال فتاة صغيرة تضع العقال فوق راسها . وفي تلك الليلة وقف بين ابيها وشقيقها وقدم والد رياض السنباطي ورفقته انه رياض ، أن الاثنين الشيخين كانا يتحدثان معاً عن الرزق فالعماء هو ميدان عمل كل منهما . بعد تلك الليلة لم يلتق السنباطي بام كلثوم الا بعد سنوات عديدة في شركة كايروفون .. حيث كان السنباطي قد اصبح يعمل مدرسا بمعهد الموسيقى العربية .. وام كلثوم نجمة مشهورة في المطلقة باسرها ، من هذا

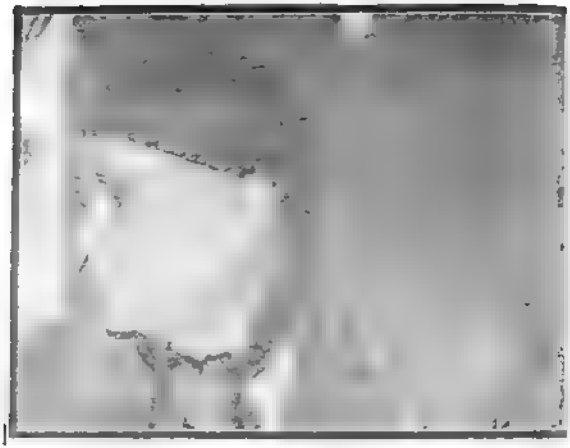

زكريا احمد .. وفاء بغير حدود

القاء بدات الحان السنباطى لام كلثوم .. واستمرت حتى الآن « الحان تتفوق على نفسها . خذ مثلا لحن « الاطلال » او « دليلى احتار » او « هلت ليالى القمر » او «بالى كان بشجيك انينى» او «رباعيات الخيام» او « هجرتك » خذ ايضا اغنية « يا ظالمنى » وقصيدة « ولد الهدى » واغنية « لسه فاكر » و « اروح لمين » و « سهران » .. آه .. تصور ان السنباطى وضع لحن اغنية « سهران » فى سنة كاملة ! هذا هو السنباطى . لحن واحد كل سنه !

بعد ان يضع السنباطى اللحن يبدا جلساته مع ام كلثوم . هذه كلماته هو : « احيانا نجلس فى حجرتها الزجاجية اذا كنا فى الشتاء نهارا كاملا بلا طعام ، بلا ماء ، بلا تليفون ، بلا زوار . ان ام كلثوم تستغرق الوقت كله فى اجراء بروفة على كوبليه واحد فقط ، فام كلثوم لاتغنى اللحن العادى او الكلام العادى . فاللحن الذى يوضع لام كلثوم اشبه بناء السد العالى . وتمر الايام على هذا المنوال اسابيع ثم شهورا نضع فيها لحنا يخرج الى الجماهير فتلقاه بالحب والاعجاب ».

ان أم كلثوم تسعى السنباطى بالبقرى . وفى اكثر من مرة كنت المس منها تساؤلها عن السبب فى أن الصحف لاتعطى للسنباطى حقه من التقدير كما تعطى لغيره . ما زال التساؤل قائما .

ان محمد القصبجى وزكريا احمد ، ان عبد الوهاب والسنباطى ، احمد شوقى واحمد رامى ، ابراهيم ناجى واحمد شفيق كامل ، بيرم التونسى ومأمون الشناوى .. كل هؤلاء — وغيرهم كثيرون — انما يضعون ايديهم فى النهاية على عدة ملاحظات تتعلق بهذا الجانب من شخصية أم كلثوم .

● فأولا : ان كل لحن ، كل قصيدة ، تغنيها أم كلثوم هى فى الواقع قطعة من نسيج طويل متصل الخيوط . نسيج يمثل صدى افكار ومشاعر أم كلثوم نفسها . انه صدى .. انه صورة .. انه اختيار .. انه تعبير من ومن شخصية أم كلثوم نفسها .

● وثانيا : انك لاتستطيع أن تقارن بين ملحن وملحن — بين شاعر وشاعر فيبما تغنيه أم كلثوم لكل منهما . لا تستطيع ، لان المقارنات هنا — برغم فائدتها أحيانا — تصبح مضللة .

● واخيرا .. فان دراسة عدد من الملحنين والشعراء الذين تعاونوا مع أم كلثوم .. ما زال امرا هاما بالنسبة لدراسة أم كلثوم نفسها . دراسة تمثل فى النهاية .. بابا خلفيا للشخصية التى تجمع بين هؤلاء جميعا : أم كلثوم .

ان ام كلثوم غنت واحبت فاستمرت
٠٠ في سنوات لا يستمر فيها احد !

أم كلثوم
بين الفن والسياسة !

لكى نحب بلدنا .. يجب أولا أن تحبنا بلدنا . حب بغير شروط . بغير تحفظات . تماما كحب الام لطفلها . ان الام لاتحب طفلها عندما يكون هادئا ، وتكرهه عندما يكون شقيا . لاتطعمه عندما يطيعها ، وتجيعه عندما يخالفها . لا . الام تحب طفلها فى كل لحظة ، كل ساعة . كل سن . انها تحبه ـ ليس لانه حقق لها رغباتها ـ ولكن لمجرد انه طفلها . هذا يكفى . انها لاتستغل حاجته اليها . لاتستغل سلطتها عليه . انها لاترهبه . لاتخيفه . ولكنها تغريه . تشجعه . تدفعه . انها تقدم له حبها بغير ثمن . بدون مقابل . بلا تعويض . انها تعطيه حبها خالصا . على بياض ..

و ...

لقد أعطت بلدنا ـ امنا ـ حبها لام كلثوم على بياض . بلا تحفظات . هذا واحد من الامثلة القليلة النادرة فى حياتنا العامة . استثناء . لقد تصرفت الام هنا بحكمة . احبت طفلتها بلاحدود . فكانت النتيجة ان الطفلة احبت امها . والفنانة أحبت جمهورها . و .. أم كلثوم أحبت بلدها . حب بغير حدود .

وخلال سنتين اثنتين دارت ام كلثوم حول الكرة الارضية مرتين ! من باريس الى المغرب . من تونس الى لبنان . من السودان الى ليبيا . من الكويت الى طنطا . من المنصورة الى دمنهور . من الاسكندرية الى القاهرة .

وفى كل مرة كانت ام كلثوم تعود فيها الى القاهرة كانت تعود بمبلغ ضخم فى يدها ، وحب ضخم فى قلبها . لقد غنى صوتها بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ غنى صوتها .. وجمعت يدها الحصيلة .

الحصيلة هى مليونان من الجنيهات قدمتهما أم كلثوم لبلدها فى سنتين . تبرع اختيارى . مساهمة عاجلة . تبرع من الجمهور الى فنانته . ومساهمة من الفنانة لبلدها .

ولكن حب ام كلثوم لبلدها أهم من تمرع جمهورها لها . العاطفة هنا أهم من النقود . القدوة أهم من المال .

ان مصر احبت أم كلثوم بغير حدود ، فأحبتها أم كلثوم بغير حدود. عرفان بالجميل . تقدير لعواطف متراكمة . وفاء لحب سابق .

انك سوف تلمس مظاهر هذا الوفاء دائما في كل حديث لام كلثوم . عندما يهتف لها الجمهور في المغرب مثلا فهي تقول : « ... كل هذا الحب لمصر . كل هذا الهتاف من أجل مصر .. وليس من أجلي » .

قبلها تقول في باريس : « انا مجرد مواطنة مصرية . لم اعمل شيئا استحق عليه كل هـذا النجاح . ان بلدي هي صاحبة الفضل الاول في نجاحي » . هكذا تقول أم كلثوم في باريس .. في السودان .. في الكويت .. في ليبيـا .. في لبنـان ، في كل بلد خارج الحـدود تعبر أم كلثوم عن وفائها للحب الذي تلقته داخل الحدود . في كل عاصمة تعلن انها عظيمة لان شعبها عظيم . ساحرة لان بلدها ساحر . تكافح بصوتها لان بلدها يكافح بسلاحه .

عند هذه النقطة ـ هذه النقطة بالضبط ـ انتقلت أم كلثوم الى قمة أخرى . قمة ثانية . من قمة الغناء الى قمة الوطنية . من قمتها كمغنية ، الى قمتها كفرد عادي . تصور .. ! الفرد العادي يستطيع هو الآخـر ان يكون قمـة في سلوكه ، في عمله ، في تصرفاته ، في مساهمته لبلده .

لقد فعلت ام كلثـوم ذلك في المرحلة التي لم تعد تحتاج فيها الى اثبات شيء جديد . انها تغني ، وهي قمة حينما تغني . انها فنانة ، وهي قمة في فنها .. هذا يكفي . لا .. هذا لايكفي .. كما اثبتت أم كلثوم . لقد تأكدت قيمتها كفنانة .

بقي ان تتأكد قيمتها كفرد عادي . هـذا ضروري في فترة سوف يكون الفرد العادي هو بطلها . فترة بدأت بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ .

ففي صراع مرير لتصحيح الهزيمة أمام اسرائيـل سنة ١٩٦٧ ، سوف يكون الفرد العادي هو دائما البطل. هو القدوة . هو النموذج. انه ـ بعمله ، باجادته لعمله، بقدوته في سلوكه ـ سوف يحسم في النهاية معركة طويلة ، ويسوي حسابا مفتوحا ، مع اسرائيل .

هنا بالضبط بدأت أم كلثوم تضرب المثل في سلوكها كفرد عادي . لقد تراجع الفنان هنا الى الخلف وافسح مكانه للفرد العادي . تراجع

صوتها الى مجرد وسيلة نحو هدف أكبر : تعبئة العواطف بالتضحية ، وتعبئة الخزائن بالنقود ، وتعبئة البنادق بالرصاص .

هنا بالضبط بدأت شخصية أم كلثوم تنمو فى اتجاه جديد . بدأت تنمو فى السن التى يتكور فيها الجسم ويتجعد الوجه وتتساقط الاسنان وتنطفىء الذاكرة . هنا تعود أم كلثوم شابة من جديد ..

فى السن التى تتدهور فيها الصحة ، وينكمش العقل ، وتضعف الرؤية ، وتتثاقل الخطوات . بدأت أم كلثوم تسرع خطواتها الى هدف جديد .

فى السن التى يتحول فيها الماضى الى حاضر ، السن التى يبدأ فيها الانسان يجتر ماضيه ، يبدأ فى الحياة على سمعة ماضيه ، بدأت أم كلثوم تعيش على سمعة حاضرها ، وسمعة مستقبلها .

فى هذه المرحلة ، هذه السن ، هذه الظروف ، بدأت أم كلثوم تصعد من جديد الى قمة جديدة . قمة خالية .

فى هذه المرحلة ، هذه الايام ، بدأ الجزء الفنى فى شخصية أم كلثوم يتراجع الى الخلف ، مفسحا مكانه الى الجزء الاساسى فى شخصيتها الجزء الوطنى .

من الآن فصاعدا سوف تصبح مواطنة أولا ، وفنانة بعد ذلك ، المواطنة تقرر ، والفنانة تنفذ القرار .

من الآن فصاعدا سوف تغنى أم كلثوم .. ولكن لصالح تبرعات ازالة آثار العدوان .. أو لصالح تعمير مدن القناة .. أو لأى عمل يخفف من بلدنا آلام الهزيمة ويساهم فى جهود النصر ..

من الآن فصاعدا سوف تحرص أم كلثوم على أن تكون مصرية بنسبة ١١٠٪ ، بعد أن أثبتت أنها فنانة بنسبة مائة فى المائة . تثبت بعملها ماغنته من قبل بصوتها : « يتى الحمى والوطن .. من منكم يحبها مثلى أنا ؟ » ..

من الآن فصاعدا لن تكون أم كلثوم مجرد فرد . مجرد جسم ، مجرد انسان تأكل وتنام وتغنى وتستريح البال . . لا . انها — من هذه الدقيقة — سوف تصبح مواطنة تفكر . وتحمل الهموم وتجمع القرش فوق القرش لكى يصنع بلدها الرصاصة فوق الرصاصة .

من الآن فصاعدا سوف تجمع أم كلثوم كل قرش لكى تعطيه لبلدها .

الف جنيه ، عشرة الاف جنيه ، مائة الف ، نصف مليون ، مليون ، ٢ مليون جنيه ! هذا هو الرقم الذى وصلت اليه أخيرا التبرعات والايرادات التى حصدتها أم كلثوم خلال سنتين . تبرعات اختيارية . تبرعات قدمها الجمهور الى بلده بوساطة أم كلثوم . قدمها خلال عشرين حفلة غنت له فيها أم كلثوم .

والسؤال الآن : لماذا ؟

لماذا كل هذا النجاح ؟

لماذا الآن .. . لماذا بهذه السرعة .. بهذا الاقبال ؟

ان جزءا من الاجابة سوف نجده فى شخصية أم كلثوم نفسها. ولكن الاجابة الكاملة سوف تجدها فى تفسير آخر .

تفسير فنى لعمل سياسى قامت به أم كلثوم .

لقد اعطت أم كلثوم نموذجا لما يستطيع الفنان ـ والفنان فقط ـ أن يفعله لبلده . نموذج شهده التاريخ من قبل مئات المرات .. وسوف يشهده مئات المرات ..

أن الفنان هو ـ فى الواقع ـ أكثر من يحب بلده من أبناء بلده . الفنان يستطيع أن يحب بلده فى ساعة حبا لا يستطيعه غيره فى سنة. الفنان ـ أديبا أو موسيقيا أو رساما أو كاتبا أو صحفيا أو مطربا ـ يستطيع أن يترجم لك الوطنية الى اشياء بسيطة مفهومة . الى هواء نقى تتنفسه ، وأرض حره تعشقها . ان الجمهور عند الفنان سواء : الشاب والعجوز ، المرأة والرجل ، اليمينى واليسارى ، الرجعى والتقدمى . كل هذه التقسيمات تمحى من قاموس الفنان ليحل محلها تقسيم آخر مختلف : مواطنون يحبون بلدهم .. وأعداء يحبون أوطنهم . .

بهذا المعنى تتحول السياسة عند الفنان الى شىء حال من التعقيد والفلسفة . السياسة هنا هى الدفاع عن الارض . دافع عن حيائك . عن سمائك . عن هوائك . عن بلدك . دافع عن أرضك .

فى هذه النقطة يقف الفنان فى المقدمة . انه ليس خلفنا ، ليس بجانبنا ، انه امامنا ، لان الفنان ـ يقول مكسيم جوركى ـ هو أكثر البشر التصاقا بالارض .

لهذا السبب فان الشخص عندما يصبح فنانا فانه يتحول الى

نموذج . الى رمز . رمز لكل ماهو جميـل وباق ومحبوب ومستمر في بلده . .

ولقد بدأت شخصية أم كلثوم تحمل هذه البـذور منذ فترة طويلة مضت ، لقد دخلت الى المسرح تغنى مرة فى شـهر فبراير سنة ١٩٤٩ ، ولكنها قبل أن تغنى فوجئت بضابط يستوقفها ليقدم اليها خطابا مغلقا . ما هذا الخطاب ؟ ماذا بداخله ؟ ورقة ؟ آه .. ما هو المكتوب فى الورقة ؟ مش معقول .. انه رجاء يقدمه اليها ضباط وجنـود الفرقة المصرية المسلحة التى يحاصرها الاسرائيليون فى الفالوجة « نريد أن نسمع منك فى حفل الليلة المذاع بالراديو اغنية علمت أصالح فى روحى » ! قطعة غنائيةتحولت الى مهمة وطنية . ليلها قطعت أم كلثوم وصلها الاولى لتقدم الاغنية المطلوبة كما لم تغنها من قبل ..

وفى حرب ١٩٥٦ كانت القنابل تتساقط على محطات ارسال الاذاعة ، والانوار مطفأة داخل استوديوهات الاذاعة نفسها ، ولكن أم كلثوم دخلت الاستوديو لتحفظ اغانيها للمعركة وسجلها على ضوء الشموع ..

وبعد نكسة يونيو ١٩٦٧ لم تنتظر أم كلثوم الدعوة من أحد لكى تؤدى دورها ـ واحسهـا ـ كمواطنة ، كفرد عادى . لقد بادرت بالدعوة الى اقامة مجمع وطنى للمرأة المصرية .. تجمع يساهم بأى مجهود لرميم ـ ثم تعبئة ـ المشاعر الوطنية للمرأة المصرية بعدها قادت الحملة لجمع تبرعات المواطنين ، الذهب ، الاموال الهدايا .. اى مبلغ ، اى هـدية ، اى رمز .. يكفى للتعبير عن مساهمتك لذلك .. دور بدأته أم كلثوم مبكرا بعد النكسـة . مازال الدور مستمرا ..

وفى كل الاحيان كان المعنى أكبر من المبالغ المجمعة ، الرمزاكبر من المال . خذ مثلا تلك العروس التى ذهبت لتحضر حفل أم كلثوم بمدينة المنصورة (فبراير ١٩٦٨) حفل اقامته أم كلثوم لصالح ترعات ازالة آثار العدوان .. ان العروس قدمت دبلة زواجها لكى تجرى عليها مزاد فى الحفل ، وفى لحظات تسابق الجميع على شراء الدبلة دون أن يسترد أحدهم الرقم الذى عرضه وسحبه آخر ، ان الدبلة ثمنها جنيه ، ولكنها بيعت بألفى جنيه ! ..

وقبل أن تمضى خمس دقائق على هذا الرقم فكرت طفلة صغيرة كانت تحضر نفس الحفل ، لقد تقدمت الطفـلة بحصة من تراث

المنصورة فى كيس صغير من الحرير لكى يجرى عليها المزاد بنفس الطريقة التى جرى بها على دبلة العروس ، فى لحظات بيعت حفنة التراب بثلاثة آلاف جنيه .. هذا ترابنا .. ارضنا .. نفديها بمالنا .. بحياتنا .. هـذا هو المعنى الذى استطاع الفنان ـ استطاعت أم كلثوم ـ ان تحوله الى رمز ونموذج ..

و .. ..

هذا هو الجانب الآخر فى شخصية أم كلثوم ، الجانب الذى يجب ان ينتهى اليه كل تقييم لأم كلثوم ، لقد تابعنا ـ طوال صفحات الكتاب ـ شخصية ام كلثوم من زوايا عديدة : ام كلثوم عندما تغنى عندما تختار ما تغنيه ، وعندما تستريح مما تغنيه ، أم كلثوم على المسرح .. وفى البيت .. مع المستمع .. ومع الشاعر والملحن . ثم ـ الآن ـ أم كلثوم كشخصية وطنية ، كفرد عادى ..

انها جوانب مختلفة من حياة أم كلثوم وشخصيتها ، ان الصفحات السابقة قامت «بتفكيك» شخصية أم كلثوم وحياتها . والصفحات القادمة ستحاول اعادة ربط شخصية أم كلثوم وحياتها من جديد .

ان ما يهم فى حياة أم كلثوم ليست الطريقة التى نرويها بها ، ولكن الطريقة التى عاشتها بها . ان ما تحتاج امرأة أخرى الى اختراعه .. جربته هى .. ما تنسجه أخرى من الخيال .. مارسته هى .. ما تحلم بنصفه اى امرأة .. حصلت عليه أم كلثوم كاملا ، انها غنت كما لم يغن احد ، فاستمع اليها الجمهور كما لم يستمع لاحد ، ان بلدها احبها كما لم يحب احدا ، فأحبت هى بلدها كما لم يحبه أحد ، انها ـ باختصار ـ غنت وأحبت فاستمرت .. فى سنوات لا يستمر فيها أحد ! ..

ان السبب فى هذا كله كان بسيطا بقدر ما كان صعبا : انها استطاعت أن تلخص وتركز وتمثل مشاعر جمهور كامل على امتداد جيلين أو ثلاثة ، ظاهرة مألوفة فى حياة كل شعب ، ففى أوقات معينة من التاريخ يستطيع شخص واحد ـ فنان واحد ـ أن يكون رمزا لذوق شعبه ومشاعره ..

هذا ما فعلته ام كلثوم . فعلته فى القاهرة .. وفى الخرطوم ، فعلته فى المغرب ، فى الكويت ، فى تونس ، لبنان ، ليبيا ، فعلته ..

حتى فى هونج كونج ، حتى فى كندا !

ان هونج كونج هى بلد الغرائب . ولكن الغريب بالنسبة لى كان مابلى . سيدة مصرية متزوجة . انها متزوجة من مدير فندق هيلتون بهونج كونج .. انها مقيمة هناك منذ اربع سنوات . شقة انيقة فى الدور الثالث من الفندق .

وقبل ان اغادر هونج كونج سألت السيدة المصرية مجاملا :

ـ الا تريدين اى شىء من مصر ؟

ردت السيدة بلهفة : آه .. ارجوك !

ـ ماذا ؟

ـ اسطوانات . اسطوانات ام كلثوم . ان احدث اسطوانة عندى هى «انت الحب» . اريد اسطوانات كل الاغانى التالية لها . لاتنس .. رجوك لا تنس !

ومن هونج كونج فى الشرق الاقصى ـ الى كندا فى اقصى الغرب ، تكررت لى نفس التجربة !

لقد ذهبت الى كندا مرة فى مهمة صحفية ، ان كندا بلاد بعيدة .. بعيدة .. بلاد تفصلنا عنها صحراء وبحار ومحيطات و ١٧ ساعة بالطائرة ، بلاد نأتمنها على اربعين الف مواطن عربى يعملون هنا .. ويعيشون هناك ..

انني سوف انسى اشياء كثيرة قبل ان انسى لقاءاتنا كل ليلة فى احد المطاعم المملوكة للعرب بمدينة مونتريال ، مطعم صغير ، ولكنه كان كبيرا جدا بالنسبة لنا ، لان صاحبه يمتلك عدة شرائط مسجل عليها احدث اغانى ام كلثوم ، (احدث هنا تساوى عشر سنوات مضت !) ـ كنا نلتقى كل ليلة ـ مجموعة من المواطنين العرب .. وانا .. لم .. نبدأ فى سماع اغانى ام كلثوم . شىء واحد اجمعنا عليه : ان بلادنا كلها تعيش فى هذا الصوت . نيل مصر،جبال لبنان تلال الاردن ، لهيب الجزائر ، سحر المغرب ، حضارة بغداد ، تاريخ القاهرة ، عمق المحيط ، صفاء السماء ، اتساع الصحراء ..

واحيانا كان هذا كله يختفى عندما يتعطل جهاز التسجيل .. لحظتها يسكت هذا كله . يتحول الى صدى . ذكرى . امل . وامانى ان ينجح احدنا فى اصلاح الجهاز .. فان كل لحظة تزن فوقنا

كجبل . ثم .. يعود الصـــوت . تعود بلادى ، بلاده ، بلادها ، بلادنا ..

كيف حال بلادنا ؟ ..

بلادنا تستعد .. شبابنا يحارب .. ارضنا تروبها الدماء ..

واسال ام كلثوم : ماذا تقرأين الآن ؟ ..

وهى ترد : قصيدة شعر لنزار قبانى . يقول احد ابياتها ..

الى فلسطين طريق واحد يمـــر من فوهة بندقية

هنا تقول ام كلثوم : ان القضية قضية ارض فلسـطين لم تكن ارضا خالية من السكان . فلسطين كانت شـعبا يملك الارض . والشعب يجب ان يعود . ليست المسألة احساناً يقدمه العالم الى اللاجئين . ان فدائيينا كسبوا لنا فى سنة مالم تكسبه لنا اصواتنا فى عشرين سنة ..

واسال : ام كلثوم .. ماذا تتصورين اننا نحتاج اليه الآن ؟..

وام كلثوم ترد : رصاص .. وعمل ..

هذا كل شىء ..

هل نحتاج الى شىء آخر ؟ ..

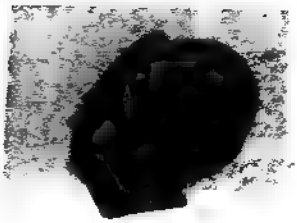

« لا يهمنى من يضـــع للناس
شرائعهـــم ما دمت انا الذى
اضـــع لهم اغانيهـــم »
كونفوشيوس

ماذا يبقى منه أم كلثوم..
أو محاولة لفرض الشخصية الفنية

.. الا المراة ! ..

عندما يصاب كل كتاب التاريخ المصرى بفقد الذاكرة ! ..

فاى شخص يتعرض لتاريخ المراة فى مصر لن يجد نموذجا واحدا لامراه يحييها المؤرخون ، او حتى يؤرخ لها المؤرخون ! ..

فالمراة عندما طلت لفترة طويلة صورة ملحقة باصل أكبر منها واهم : الرجل ..

المراة فى تاريخنا ظل . خيال . صدى . ان المؤرخين لايتحدثون عنها الا من خلال رجل .. أو عن طريق رجل .. او بوساطةرجل!

و .. هذه اول قاعدة ساهمت ام كلثوم فى كسرها ..

ان ما يبقى — او يجب ان يبقى — من ام كلثوم هو هـــذا : ان المراه تستطيع هى ايضا أن تساهم بشكل رئيسى فى حياتنا العامة .. وفى قضايانا العامة . ان ام كلثوم — كامراة — لم تنتظر الدعوة من احد لكى تبدأ نشاطا وطنيا عاما بعدنكسة يونيو ١٩٦٧ ، وقبلها نشاط مستمر . النقطة هنا هى ان المراة يمكن ، تستطيع ، بل تقوم فعلا — بتحويل السياسة الى عمل بسيط يؤديه كل مواطن المراة هنا تستطيع ان تشارك ، تدعو ، تفكر ، تتقدم ، تبادر ، ثم تعطى المثل . لم تعد المراه هنا تحتاج الى أن تبرر نفسها مرتين : مرة كامراة .. ومرة كمواطنة . لقد سقط الحاجـز الذى كانت المراة تجلس خلفـه .. كامراة .. وبسقوط هذا الحاجز بقيت الصفة الاساسية للمراة : انها مواطنة أولا .. ثم امراة بعد ذلك .

هذه نقطة ..

ولكن ام كلثوم فنانة مثلما هى امراة .

هنا أيضا تستطيع ان تكتشف ماذا يبقى لنا منها كفنانة . لقد اثبتت ام كلثوم من قبل ان المرأة لا تستطيع ان تكون مواطنا محايدا فى القضايا العامة . انها هى أيضا يجب أن تتصدر الصفوف .

وما يبقى من ام كلثوم كفنانة هو ان الفنان أيضا لا يمكن أن يكون محايدا . الفنان لا بد أن يكون « مع » و « ضد » . الفنان لا يستطيع أن يكون عديم اللون والطعم والرائحة .. لابد للفنان ان يكون له طابع ، لون ، موقف ..

فعندما جاءت ام كلثوم الى القاهرة كانت تستطيع بسهولة ان تكون مجرد مطربة اخرى تردد الاغانى الخلعة السائدة . مجرد مبتدئة تكرر ما نجح فيه غيرها . مجرد صدى . ولكنها اكتشفت انه لابد للفنان ان يختار . لابد — لان الفن هو اولا اختيار .

وحينما يختار الفنان فانه يفعل ذلك دون ان يلوى ذراع الجمهور لا يستطيع . لا يمكن ..

عند هذه النقطة بالضبط سوف نجد انفسنا وجها لوجه امام الدور الحقيقى للفنان — لاى فنان — دور نسىء فهمه غالبا ، دور يفرض علينا أن نفهم الفنان اولا .. حتى يفهمنا الفنان ! ..

ان الفنان هو اولا متفرج . انه متفرج كاى شخص ، ولكنه ليس كاى شخص ! ..

الفنان متفرج من حيث انه يعيش فوق نفس الارض التى نعيش عليها جميعا . يتنفس نفس الهواء . ينفعل بنفس الاحداث .

ولكن الفنان يأخذ تلك اللحظات التى هى بالنسبة لنا مجرد لحظة ، زائد لحظة ، زائد لحظة اخرى .. ثم ينقلها الينا مرة اخرى كسلسلة جديدة مترابطة من الزمن ، لها معنى جديد .. وتفسير جديد ..

ان الشخص العادى يرى صورة الحياة مجزأة منظرا منظرا . يرى الجزء الذى بهمه ، ولكن الفنان يرى — أو يحاول أن يرى — الصورة كلها . فالشخص العادى يرى الشجرة .. والفنان يرى الغابة ..

من هنا بالضبط يبدأ الفنان فى الانفصال عن الشخص العادى .

فالشخص العادي يعيش حياته بالاقدمية . مجرد تسجيل اقدمية زمنية في الحياة . ولكن الفنان ليس كذلك . انه ليس قطعة اسفنج تمتص الالوان وتعيدها الينا دون تغيير . انه يعيدها الينا الوانا جديدة.. بمعان جديدة .. ومضمون جديد.. فن..

والفنان ـ عندما يكتمل ـ فانه يتعلم أن يفكر ويشعر ويرى بشكل جديد ، طريقة خاصة . اسلوب مختلف . وهذا هو الامر الصعب دائما في اي شيء ..

ان الروائي الفرنسي الشهير فلوبير كان يقول لكل واحد من تلاميذه اذهب وسر خطوتين .. ثم اكتب لي مارأيته في مائة سطر ! .
هذا حقيقي ..

فالفنان لا بد أن يرى مالا يراه غيره ، يلاحظ مالا يلاحظه غيره . يتفرج كما لا يتفرج غيره .

⊙❖⊙

وكل منا هو في الواقع فنان بدرجة او بأخرى ، ان الغريزة التي تدفعنا الى ان نطابق بين الوان جواربنا وأربطة عنقنا ، وتدفعنا الى أن نضع ازرارا على ملابسنا .. هي نفسها الغريزة البدائية التي تدفع الفنان فيما بعد الى البحث عن الجمال في كل شيء قبيح . كلنا اذن فنانون بشكل ما .. فالرغم من اننا لا نعرف ذلك عالما . اكتشاف . تماما كالبطل في احدى مسرحيات موليير .. عندما يشعر بسعادة بالغة لانه اكتشف ـ فجأة ـ انه كان طوال حياته يتكلم : النثر !! ..

نحن اذن نحتاج الى النظرة الفنية في حياتنا ، نحتاج الى وجود الفنان . واذا لم نجده اخترعناه . فكل جيل يتولى اختراع الفنانين العظماء الذي يقدم لهم تقديره واعجابه ..

⊙❖⊙

ومن الاقوال المأثورة أن كل شعب يحصل على الحكومة التي يستحقها ..

ولكن الاقرب الى الحقيقة أن كل جمهور يحصل على الفنانين الذين يستحقهم ، لان كل جمهور يسعى دائما الى أن يتعرف على حقيقته . والفن يقوم ـ في جزء منه ـ بهذه المهمة . الفن ـ كما قال الروائي الانجليزي د. هـ. لورنس : يخبرك بالحقيقة عن عصره او ـ كما قال كارل ماركس ـ الفن هو دائما الحركة الخالدة لعصره

قبله .. على أحسن كتاب : القرآن الكريم

أو ـ يقول الفنان الشهير بيكاسو ـ اننا جميعا نعرف ان الفن ليس هو الحقيقة . ان الفن هو الاكذوبة التى تجعلنا ندرك الحقيقة .

ان الصفة الاساسية للفن اذن هى انه يكتشف ويدرك لحسابنا انه يعطينا الوجه الآخر ـ الوجه الخفى ـ لحياتنا .

والفنان حينما يقوم بهذه المهمة فانه يقوم بها لحسابنا جميعا . لحساب جمهوره . فلا تصدق انه يوجد فنان لا يهتم بالجمهور . كذب . الفنان لا يمكن ان يستغنى لحظة عن الناس ومن الجمهور .. الآن ، او بعد مائة سنة . بل ان الفنان الروائى تولستوى ـ فى تعريفه للفن ـ يقول انه « .. نشاط انسانى يحاول فيه واحد من الناس ان ينقل احساسات معينة عاشها هو .. لكى يتأثر بها الآخرون ويعيشون هم ايضا » ..

ان جوهر هذا الرأى لتولستوى يتشابه مع نظرية اخرى فى الشعر وثالثة فى القصة ، ورابعة فى الغناء . نظرية تصر على أن الفنان هو « .. انسان يتحدث الى الناس » ..

لهذا السبب فان الفنان يجد نفسه دائما فى وضع واحد مع السياسى والقديس . ان الثلاثة هم الذين يحكمون العالم ـ الآن وفى اى وقت . الثلاثة عبيد لـ ـ وسادة على ـ المجتمع الذى يعيشون فيه . الثلاثة يحتاجون دائما الى جمهور ، ولهم دائما جمهور . ولكن من الصعب أن نقول أيهم يملك السلطة الاكبر بالنسبة لجمهوره .

ان السياسى يملك السلطة ، والقديس يهدد بالجحيم ، والفنان يغرى بالجمال ..

وبالنسبة للسياسى فان العالم ينقسم الى قسمين : اصدقاء .. واعداء . الذين معه .. والذين ضده .

وبالنسبة لرجل الدين ينقسم العالم الى قسمين آخرين : مؤمنين .. وكفار . الذين يؤمنون .. والذين يكفرون .

اما الفنان ـ فما زال العالم ينقسم عنده ايضا الى قسمين : الذين يحبون .. والذين لا يحبون . الذين يتذوقون الجمال .. والذين لا يتذوقونه ..

انه اذن تقسيم مختلف . اهتمامات مختلفة . جمهور مختلف .

واحيانا يكون الجمهور واحدا بالنسبة للثلاثة ، ولكن معنى هذا الجمهور يختلف .

احيانا تكون الايدى التى تصفق للجميع هى نفسها .

ولكنها عندما تصفق للسياسى فهى تقول : موافقون .

وعندما تصفق للقديس فهى تقول : مؤمنون .

وعندما تصفق للفنان فهى تصيح : اعطنا المزيد .. أمد ..

ان الجمهور يقول ذلك للفنان بغير سلطة يخشاها أو جنة تغريه .. اختيار .. لأن الفنان هو الوحيد الذى يعيش بعقله . يعيش على ذكائه ، وذكائه فقط . انه يلعب على المكشوف . ان أوراقه كلها يراها الجمهور ..

لهذا السبب نفسه فان الفنان يحتفظ بأدبه دائما قريبة من ايدى الجمهور . وكلما صفق له الجمهور اكثر .. احتاج هذا لتصفيق اكثر . المسألة كمياه المحيط . كلما شربت منها اكثر .. عطشت اكثر . ان الفنان هنا كالبطل فى احدى روايات بلزاك ، حينما يطل على باريس ويصيح : لم يزل امامى ان امتلك هذه !

ولكن الفنان لا يحصل على اعجاب الجمهور بسهولة . واذا حصل عليه أصبح صعبا ان يحافظ عليه .

المسألة هنا كطرفى مقص . كلما حصل الفنان على اعجاب من الجمهور .. شعر بخوف اكبر من فقدان هذا الجمهور . خوف من الا يتلقى هذا الاعجاب مرة أخرى .

ان الذين يعرفون ام كلثوم عن قرب ، يعلمون انها تعتبر ان كل اغنية جديدة تقدمها للجمهور هى اغنيتها الاولى . هى لعازها الاول مع الجمهور . انها تحس بخوف ، باضطراب ، بقلق ، بمسئولية ، انها تحس أن كل عمل جديد تقدمه هو استفتاء جديد لشعبيتها ، هذه المسئولية نحو الجمهور . هذا القلق ، يشعل كل فنان أصيل باكثر مما نتصور ، وكلما كبر الفنان زاد قلقه .. زادت مسئوليته .. أن اى شخص .. كلما ارتفع فوق السلم .. ازدادت خشيته من السقوط . لانه كلما كان مرتفعا .. كان السقوط مدويا ..

وسقوط الفنان يمكن ان يتم فى اى لحظة . لايكفى ان تكون فنانا امس ، ولا منذ خمس دقائق . يجب ان تكون فنانا الآن ، وفى كل لحظة . ان بيرجنت بطل مسرحية هنريك ابسن يصيح قائلا : اين ثلوج شتاء مضى ؟!

والجمهور يقول نفس الشيء : لقد ذابت بالنسبة له ثلوج شتاء مضى . ذابت امجاد يوم مضى . ماذا من جديد .. هذا مايهم الآن

ان هذا الخوف من ــ والحاجة الى ــ الجمهور ــ هو ابرز مايميز الفنان عن غيره فى هذا العالم . ان الجمهور بالنسبة للفنان هو المكافأة .. وهو العقاب . هو البداية .. والنهاية . السعادة .. والالم . القمة . . والقاع .

هذا معناه ان الجمهور يملك دائما حق الفيتو بالنسبة لاعمال الفنان . حقا يحمى أهل الفن دائما من اهل الهوى . ويميزهم من اهل الهوى .

فالفن يرفض التكرار .. حتى ولو طلبه اهل الهوى .

والفن لايقبل الوساطة .. حتى ولو حاولها اهل النفوذ ..

والفن لا يأخذ رشوة .. حتى ولو دفعها اهل الغنى .

كل الفنون هكذا : ادب .. موسيقى .. رسم .. شعر .. صحافة .. وغناء

انها علاقة مباشرة تجعل الفنان دائما اصدق ممثل للجمهور . فالفنان الصادق دائما هو الذى يتقمص الصفات البارزة لشعبه . من الذى يفوق فى امريكيته مثلا سينسر تراسى او هنرى فوندا أو هنرى ميللر . من الذى يفوق فى ايطاليته البرتومورافيا او آنا ماناياني ؟ من الذى يفوق فى فرنسيته جان بول سارتر أو بريجيت باردو ؟ من الذى يفوق فى مصريته طه حسين او العقاد او ام كلثوم ؟

كلهم يحملون فى اعمالهم بصمات شعوبهم واضحة . صفات مجتمعهم كاملة . اتفق او اختلف مع هذه الصفات كما تشاء .. ولكنهم فى النهاية رمز وتلخيص لها .

والفنان ــ بجانب مهمته كمتفرج على الحياة ــ هو ايضا مفسر لهذه الحياة . انه مؤرخ للماضى .. ومكتشف للمستقبل فى وقت واحد .

اولا في كل مناقشة قبل ان يبدا الحديث

صعوبة جديدة تضاف الى الصعوبات السابقة فى عمل الفنان .

فالفنان عندما يكون كاتبا .. فانه يصبح كالطبيب : لاتهمه حالات اكتمال الصحة ، ولكن تثيره حالات تفشى المرض .

وعنـــدما يكون اديبا .. يصبح كالفلكى : يبدأ بما يراه الجميع .. لكى يصل الى مالا يراه الجميع .

وعندما يكون موسيقيا او ممثلا او مغنيا .. يصبح كالشمعة : لابد أن تحترق .. لكى تنـير للآخرين . لابد ان يتألم الفنان .. لكى يسعد الآخرين .

فالشمعة فى يد الفنان تحترق من طرفيها ، لابد للفنان ان يتعذب ، يقاسى ، يتألم ، أحيانا يستشهد ، لكى يقدم للآخرين شعاعا من النور يهديهم الى الطريق .

وكثيرا مالا يرى الناس اثرا لهذا العذاب فى عمل الفنان . تماما مثلما نلاحظ فى حيـاتنا العـــادية ان كثيرا من الاشـياء التى نأكلها قد طبخت على موقد بوتاجاز .. ولكننـــا لانعثر فى الطعام على مذاق البوتاجاز .

لهذا السبب كان الموسيقار الالمانى الشهير يتهوفن يقول دائما : انى اصبر وأفكر واتألم .. فكل الم يجلب معه بعض الخير !

ان هذا الامل ـ الامل فى بعض الخير بعد كل العذاب ـ هو العزاء الاخير لاى فنان عن الله ، مثلما نجد ان نجاح انطلاق الصاروخ فى دقيقة هو العزاء الاخير لسنوات من الجهد الذى بذله المهندسون والعلماء فى تركيب هذا الصاروخ .

أن الخوف من الجمهور يسبب أقصى الالم ، ولكن مكافأة الجمهور تسبب أقصى سعادة . شـــعور عبر عنه حكيم الصـــين القديمة كونفوشيوس بقوله : « لا يهمنى من يضع للناس شرائعهم ما دمت أنا الذى أصنع لهم أغانيهم » .

لان الفن هو فى النهاية تعبير الانسان عن سعادته .

و .. ام كلثـــوم هى أولا امرأة ، وثانيا فنانة ، وثالثـــا فنـــانة تسعد الناس .

وبالمنطق ...

[illegible]

الصور الحديثة لام كلثوم بعدسة فاروق ابراهيم

ليس من حقنا أن نستهلك السعادة دون أن ننتجها . كلمات نظرية . لاننا نرى غير ذلك فى حياتنا . نستهلك الثروة دون ان ننتجها . نستهلك الجمال دون أن نخلقه . و. تستمع الى أم كلثوم ، دون أن نسج أم كلثوم اخرى . ولسوف يظل الامر هكذا الى ان نفهم أولا طبيعة الفنان كشخص متميز . نفهم ثانيا ماذا يتبقى لنا من الفنان من أم كلثوم فى حالتنا هذه .

ان أم كلثوم فنانة تغنى . قمة فى فنها . مستمرة فى قمتها . ان استمرارها هذا نجاح فى حد ذاته . فمع صدام الاجيال المستمر الذى تشهده الانسانية . . لابد جيل يتقبل أحكام واذواق الجيل السابق عليه بغير مراجعة احيانا وبالرفض غالبا . ان هذا لم يحدث مع أم كلثوم . استثناء خاص .

ان هذا الاستثناء لم يكن مجاملة شخصية لأم كلثوم . فالفن لا يقبل المجاملات . وانما هو نتيجة لصفات استثنائية تميزت بها أم كلثوم . صفات حاول هذا الكتاب تسجيل عناوينها الا صفة أخيرة . . هى حياة أم كلثوم نفسها .

فنحن — فى الادب مثلا — نرى أن هناك نوعين من الفنانين . نحن نرى فنانين تطغى أعمالهم الفنية على حياتهم . شيكسبير مثلا . نحن لانعرف من هو شيكسبير . . أو من كان هومر . لقد اختفى الفنان هنا داخل عمله ، وتراجعت حياته وشخصيته الى الخلف تماما . .

وفى مقابل ذلك نجد فنانين طغت حياتهم على أعمالهم الفنية . جان جاك روسو مثلا . ان اعترافاته التى سجل فيها حياته أصبحت أهم عمل فنى له . لقد أصبحت حياته نفسها عملا فنيا تراجعت الى جانبه كل الاعمال الاخرى .

وبالنسبة لأم كلثوم فانى أرى أنها تنتمى الى النوع الاول فى المدى القصير ، وتنتمى الى النوع الثانى فى المدى الطويل . ان السنوات القادمة سوف تؤكد ذلك .

تؤكد ان حياة أم كلثوم هى نفسها العمل الفنى الاكبر الذى تركته لنا . .

. . .

كم الساعة الآن — لو سمحت ؟ !

محمود عوض

من الحديد
إلى الذهب
للصانع .. للتاجر
.. للمستهلك ..

سيجال
SIGAL

الشركة المصرية لتجارة المعادن

احدى شركات الزيت المصرية العامة للبترول والمعادن والكيماويات

أرقى الأزواق
وأروع تصميمات

إنتاج مصانع الشركة

المجوهرات

ذهب عيار ٢١ و ١٨ أو مرصع بالماس أو الياقوت

المركز الرئيسي : ٤٣٢ شارع بور سعيد
تليفون : ٩٠١٦٨٧ / ٩٠٩٤٩٩ / ٩٠٩٦٨٣

فاليانت جديد

بجودة صناعة الدواء

معجون
الأسنان

كريم الحلاقة

نصف الكمية
تعطيك
ضعف الرغوة

القاهرة للأدوية

بنك القاهرة
الحائز على كأس الانتاج لعام ١٩٦٩
صندوق التوفير
فائدة
٣ ½ ٪
سنويا
الحساب الشخصي
يخدمك أينما سافرت بدون
عمولة أو مصاريف
فائدة ٣ ½ سنويا
الخدمة المسائية
بفروع : طلعت حرب - رمسيس
العباسية
من ٦ ½ إلى ٨ ½ مساء
الإدارة العامة : ٢٢ شارع عدلي القاهرة

شركة
عادل
للملابس والمنسوجات
٥ شارع صبري أبو علم
القاهرة ٤١٥٨٢
أرقى صيحات الأزياء
في الرجال

الأهرام
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

شركة اسطوانات صوت القاهرة
أم كلثوم
تقدم من
روائع سفيرة
الفن العربي
ألف ليلة وليلة
هذه ليلتي
ذات الميعاد
حديث الروح
هجرتك
حب ايه
مش ممكن أبدا
حيرت قلبي
لا يا حبيبي
حسيبك للزمن
ظلمنا الحب
سيرة الحب
أنت عمري
بتفكر في مين
للصبر حدود
أقولك إيه
أغاني رابعة
أمل حياتي
بعيد عنك
أروح لمين
عودت عيني
يا ظالمني
ذكريات
الأطلال
فكروني
إنت الحب
رباعيات الخيام
أراك عصي الدمع
تباع بفرع الشركة ٣ شارع البورصة الجديدة بالقاهرة ومعارض شاهر ستريلك وجميع محلات بيع الاسطوانات بمصر والخارج
وبمعارض :
الكويت : سعد وخالد نصار الشريعان ص.ب ١٥٦ الكويت
لبنان : قطان إخوان شارع بشارة الخوري بناية طرازي ص.ب ٢٥٩٤ بيروت
العراق : محمد عارف حقاقجي شارع الرشيد ص.ب ١١٠١٦ بغداد

صيدناوي
شهلا
الشركة المصرية للملابس والمنسوجا
٢٥ فرع من الاسكندرية إلى أسوان لخدمتك
Bibliotheca Alexandrina
0622459